الجزء الأول

من كتاب

الغصون اليانعة

في محاسن

شعراء المائة السابعة

الأول من الصفحات المزيدة (لوحة رقم ٥)

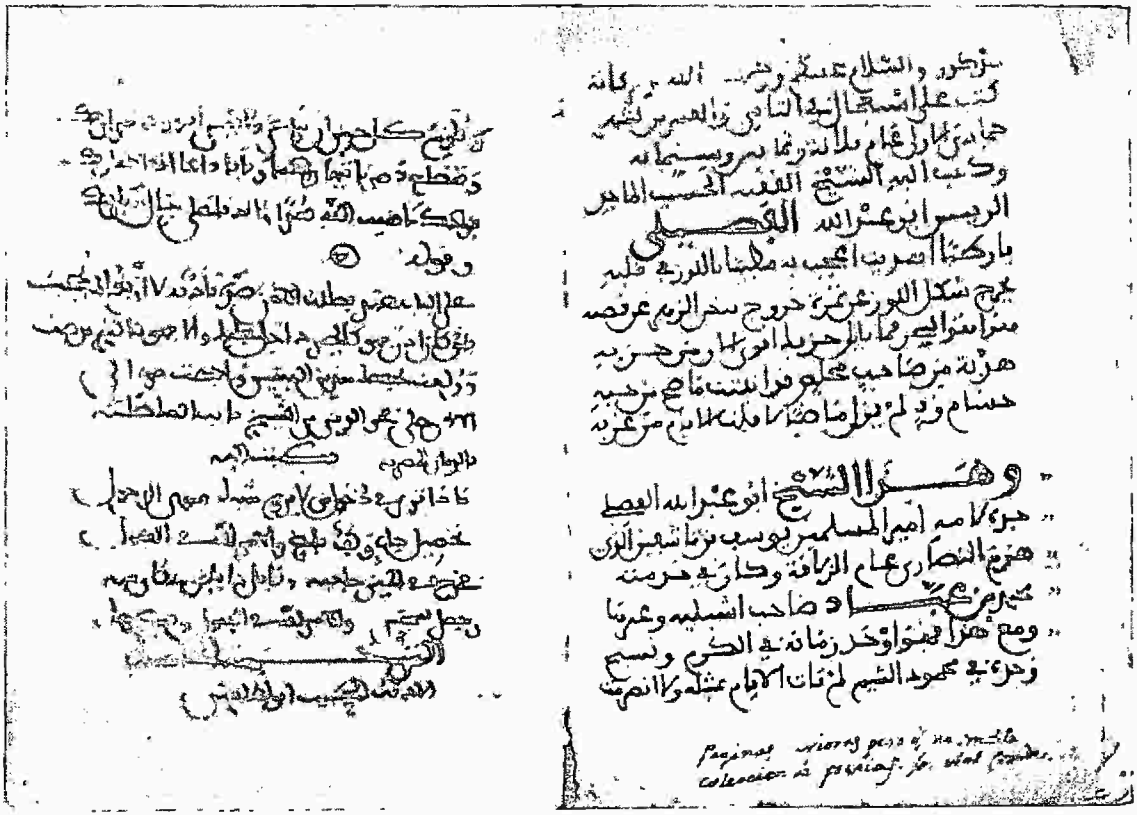

الأخيرة من الصفحات المزيدة (لوحة رقم ٦)

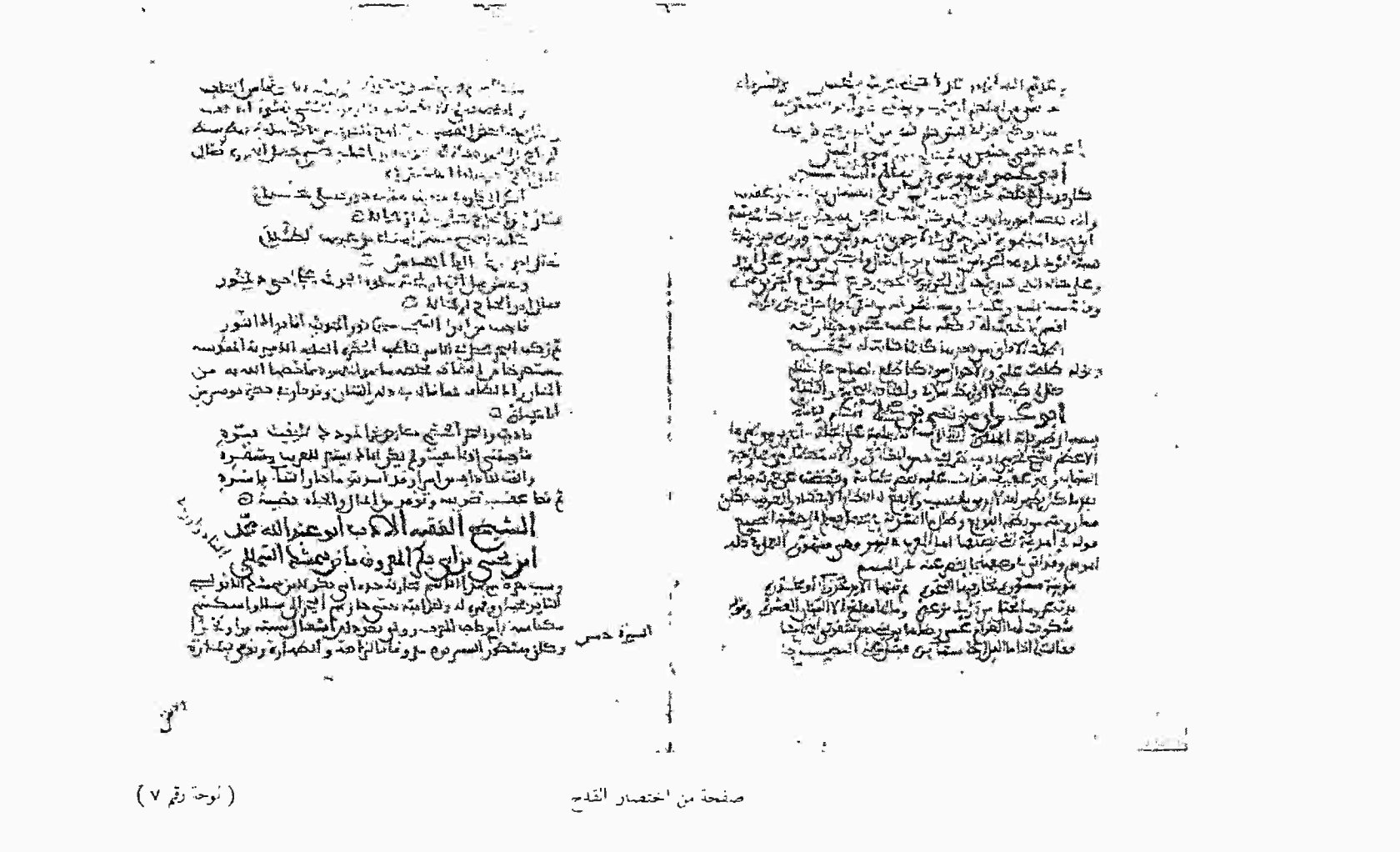

صفحة من اختصار الفلاح

(لوحة رقم ٧)

[2 a] / بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد

أما بعد حَمْد الله عَوْداً على بَدْء، والصلاة على خِيرة أنبيائه تبرُّكاً بذكره فى كل شىء؛ وعلى آله وصَحبه الكرام، والتابعين لهم بإحسان مدى الأيّام.

فهذا كتاب «الغُصون اليانعة، فى محاسن شعراء المائة السابعة» وهو الثامن من الكتب التى اشتمل عليها «جامع طبقات الشعراء» الموسوم بـ «الحُلَّةِ السِّيَراء».

وترتيب هذا الكتاب على ثلاثة أقسام:

الأول: فى تراجم الذين تَحقَّقت سِنُو وفاتهم.

الثانى: فى تراجم الذين لم يُوقَف منهم على ذلك.

الثالث: فيمن استقرَّ العِلم على حياته عند انتهاء / هذا التصنيف، [2 b] وذلك فى سنة سَبْع وخمسين وستمائة.

ولما كَمُلت هذه النسخة قصدتُ بها مَن حاز الكمال، واشتمل على محاسن الأفعال، التى يقصُر عنها باعُ المقال؛ وقدّمتُها إلى مُطالعة من يزيدها نَباهة، وملاحظة من يَكْسبها حُظْوة ووجاهة؛ مُنفِق

سوق الآداب ، وبَدْر هالة الأدباء والشعراء والكتّاب :

لسنا نُسمِّيك إجلالًا وتَكْرمةً ومَنْ يَصِفْك فقد سمَّاك للعَرَبِ

والله يرزقها منه القَبول ، ويُبْلغ مُصنِّفَها مِن وُدّه غاية الأمَل المَوْصول .

القسم الأول

فى تراجم الذين تحققت سِنُو وفاتهم

تراجم سنة إحدى وستمائة :

ثمان

المشارقة :

ا — من العراق :

١ — الأديب الشاعر المتصوف / شُميم الحلىّ [3a]

٢ — والشاعر البارع المحسن العبدوسى الواسطى

ب — ومن الشام :

١ — الوزير الجواد المجيد نجم الدين بن مجاور الدمشقى

٢ — والرئيس الشاعر المتقدم شمس الدين بن نفادة الدمشقى

المغاربة :

ا — من المغرب الأقصى :

١ — قاضى الجماعة الأديب المتقن أبو عبد الله بن مروان التلمسانى

ب — ومن الأندلس :

١ — شيخ طلبة الحضر العالم الجليل الفيلسوف الأديب الشاعر النبيل أبو جعفر الذهبى البَلَنْسى

٢ — والجليس المتفنن الكاتب الشاعر المتقن أبو محمد بن الياسمين الإشبيلى

٣ — والفقيه المدرس الشاعر الظريف أبو العباس بن مسعود القرطبى ، نزيل دنيسر بالمشرق

الترجمة الأولى

[شميم الحلى]

الأديب الشاعر المتصوِّف شَمِيم الحِلِّى / علىّ [بن الحسن][1] [3a]
ابن عَنْتر ، من مدينة الحلّة[2] من مدن الفُرات العِراقيَّة . شاعر مَشْهور بالمَشرق ، مَذكور فى الكتب وعلى الألسن .

وقفتُ على ترجمته فى تاريخ بغداد لابن السَّاعِى[3] ، وتاريخ حلب لابن العَدِيم ، وكتاب الادباء لياقوت الحموىّ[4] . وتلقّيتُ جُملاً من أخباره

---

(١) التكملة من معجم الأدباء .

(٢) يريد « حلة بنى مزيد » . قال ياقوت : « مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد ، كانت تسمى الجامعين . وكان أول من عمرها ونزلها سيف الدولة صدقة ابن منصور بن دبيس بن على بن مزيد الأسدى . وذلك سنة ٤٩٥ هـ » .

(٣) كان أحمد بن أبى طاهر أول من ألف فى تاريخ بغداد ، ثم أبو بكر أحمد ابن على المعروف بالخطيب البغدادى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ . وقد ذيل عليه ابن النجار محب الدين محمد بن محمود البغدادى المتوفى سنة ٦٤٣ هـ . وبالظاهرية منه نسخة برقم (٤٢) تاريخ . ثم ذيل على ذيل ابن النجار أبو بكر المارستانى . وعلى ذيل المارستانى ذيل تاج الدين على بن أنجب بن الساعى البغدادى المتوفى سنة ٦٧٤ هـ . وهذا الذيل الأخير هو الذى عناه المؤلف . وقد طبع منه بأخرة الجزء التاسع فى بغداد . ولابن الساعى أيضاً : أخبار قضاة بغداد . وله كتاب فى التاريخ كبير ، ذكرهما حاجى خليفة .

(٤) وانظر أيضاً وفيات الأعيان لابن خلكان . والذيل على الروضتين فى أخبار الدولتين لأبى شامة . وإنباه الرواة للقفطى ، وبغية الوعاة للسيوطى ، وشذرات الذهب لابن العماد . وذكر ابن خلكان أنه نقل عن تاريخ إربل لأبى البركات مبارك بن أحمد بن المستوفى المتوفى سنة سبع وثلاثين وستمائة . والكتاب كما وصفه حاجى خليفة كبير فى أربع مجلدات ، سماه ابن المستوفى : « نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأماثل » .

وأشعاره من أُدباء العِراق والجزيرة والشام . فلخَّصتُ من جميع ذلك ما يليق بهذا المكان :

جملةُ أمرِ هذا الرجل أنّ ذِكْرَه فوق شعره ، فعلى كَثْرَته لم أَقِف له على ما فيه إغرابٌ ولا إبداع . ومن جملة ذلك كتابُ الحماسة[1] التى جمعها من شعره ، لَحَظتُها فلفظتُها إذ وجدتها مَفْسولة غير معسوله . وأقربُ ما وقفتُ عليه من شِعره ، لِما يليق بالمَنْزِع المُختار لهذا الكتاب ، قولُه :

[طويل]

أَلَاهاتِهاحيثُ الجداولُ أصبحتْ تَصُولُ على أرجائها بِصِلَالِ
لدَى نَرْجسٍ يَسْبِي العُيونَ بمثلها كأَقْراطِ تِبْرٍ كُلِّلتْ بِلآلِ

[4 a] فهو وإن لم يأتِ بما يَظهر عليه غَوْصُ الفكر فإنه / ما قَصَّرَ فى سَبْك اللَّفظ وتقريب المعنى وزيادة التلفيق . وأشهر ما تَقدمَّه فى تشبيه النَّرجس بالأقراط قولُ ابن عبد ربه القُرطبىّ صاحب العِقْد :

[طويل]

على ياسَمين كاللُّجين ونَرْجس كأقراطِ تِبْر فى قَضيب زَبَرْجَدِ

نَظر إليه وإلى قول أبى الطيّب السَّلامىّ[2] :

---

(١) رتبه على عشرة أبواب فى مجلد وضاهى به كتاب الحماسة لأبى تمام الطائى . إلا أن أبا تمام جمع فى حماسته أشعار العرب ، أما شميم فقد عمل حماسته من أشعاره وبنات أفكاره . (انظر معجم الأدباء ، ووفيات الأعيان) .

(٢) السلامى ، نسبة إلى دار السلام ، وهى بغداد . وإن صح فهو غير أبى الحسن محمد بن عبد الله السلامى الشاعر المعروف ، المتوفى سنة ٣٩٣ هـ .

[سريع]

انظُر إلى غُصْنٍ لَوَتْه الصَّبَا وقد غـدا من زَهْرِه فى حُلَى
كأنّه جيـــدٌ على قامَـــةٍ مِنْ عِقْدِه بالدُّرّ قد كُلِّلا

ولفّق منهما ما اُستحقّ به اسمَ شاعر .

وتذاكرتُ فى شأن هذا الرجل مع بعض أهل بلده ، فلم يُعجبْه ما وصفتُه به من عدم غَوْص الفِكرة والنُّهوض إلى الطبقة العالية ذاتِ الإعْراب والإبداع . فجاءنى بعد أيام وقال : ما تقول أيضاً فيمن يصدُر عنه مثل هذا :

[متقارب]

أقـــول لآمرةٍ بالخِضَابِ تُحاوِل رَدَّ الشَّبابِ النَّضِيرِ
أليس المَشيبُ نَذِيرَ الإلٰهِ ومَن ذا يُسَوِّدُ وجهَ النَّذِيرِ

فقلت : لَعمرى لقد أغرب لو لم يكن اهْتَذم[1] ذلك / من قول [48b]
أبى أحمد النَّهْرجُورىّ[2] :

[وافر]

وقائلةٍ تَخضَّبْ فالغَـــوانى قُعود عن مُصاحبة الـكُهولِ
فقلتلها المَشِيبُ رسول ربّى ولستُ مُسوِّدًا وجهَ الرَّسول

---

(١) اهتذم : اقتطع .

(٢) النهرجورى . نسبة إلى نهرجور ، بضم الجيم وسكون الواو وراء : بلد بين الأهواز وميسان ، فيما حسب ياقوت . وهو أبو أحمد العروضى أحمد النهرجورى .
حدث على بن محمد بن نصر الكاتب قال : اجتمعت به بالبصرة فى سنة تسع وتسعين وثلثمائة . وسافرنا عنها إلى أرجان . وخرج النهر جورى معنا إلى أن تقلد أبو الفرج محمد بن على الخازن البصرة ، فى أواخر سنة اثنتين وأربعمائة ، فعاد معه إليها . ثم وردتها فى ذى القعدة سنة ثلاث وأربعمائة ، وقد مات النهرجورى قبل ذلك بأشهر . (وانظر إرشاد الأريب . والوافى بالوفيات) .

فقال : أمثل هذا الرجل تُقصِّر به ، وهو إمام فى العلماء والزهّاد ! فقلت له : الآن أرحتَ واسترحت ، إن كنتَ منصفاً لم أُقصِّر به من جهة عِلْمه ولا زُهده بل من جهة الشعر ؛ لكونكم أوجبتم له من الشهرة والتّقديم فيه ما لا يقوم عليه بُرهان . فنفض ثيابه ، وقام يَحُر أهدابه .

وقد ذكر ياقوت الحموىّ أنه اجتمع بشميم فرآهُ كثيرَ الدّعاوى ، خارجاً عن نمط الإنصاف والاعتراف . قال : أنشدنى مرةً قولَه فى الخمر :

[مجزوء الكامل]

خَفَقَتْ[1] لنا شَمسانِ منْ ... لَألائها فى الخافقَيْنِ
فى لَيْلةٍ بَدَأ السُّرُو ... رُ بها يُطالِبنا بدَيْنِ
ومَضَى طَلِيقَ الرّاحِ مَنْ ... قَدْ كانَ مَغْلُولَ اليَدَيْنِ

قال : فقلتُ : أحسنتَ ! ففضبَ وقال ويحك ! ماعندك / غيرُ [5a]
الاستحسان ؟ فقلت : فما أَصنع ؟ قال : تصنع هكذا ، ثم قام يرقُص ويصفّق . وجلس وهو يقول : ما أصنع ! وقد بُليت ببَقر لا يُفرِّقون بين الدُّرّ والبَعر ، والياقوت والحجر[2] !

قال: وكان قد جال البلاد واستقر بالموصل، فمات بها فى ربيع الآخر سنة إحدى وستمائة .

(١) الأبيات من قطعة تبلغ أبياتها عشرة ، ذكرها كلها ياقوت فى معجمه .
(٢) الحديث هنا يخالف ما رواه ياقوت فى معجمه فى بعض ألفاظه .

ومما ذكره المؤرّخون من أمره أنه كان من أعلام فُقهاء الشِّيعة بالحِلّة ، وأهل الفُتيا والإقراء عندهم . ثم ترقّى إلى الزهد بزَعْمه واطّراح الدنيا ، وصار يُكثر الخَلْوة ويَصِل الصوم ، إلى أن كان يزعُم أنه يبلغ شهراً لا يأكل ولا يشرب ، فى يوم ولا نهار منه .

وكثير من أمثاله عاينتُهم ببلاد المشرق يبلغون فى الخلوة هذا المقدار وأكثر ، ويُجعل عليهم أُمناء وحُرّاس من قِبَل الملوك والكبراء لتتبيّن حقائقُهم ، فيُشار إليهم بعد ذلك بالأنامل ، وتلتفّ عليهم هالاتُ المحافل .

ومن تاريخ ابن / العديم[1] : أنّ شميماً بلغ فى الخَلْوة إلى أن كان [56] يصل الصومَ ، ثم يأكل الطينَ فينزل برَجيع ما فيه رائحة ، ويُشِمّه مَن يدخل عليه ليعلم مقدار مبلغه من الرياضة ؛ فلذلك لُقِّب بشُميم .

وحَكى لى أحدُ فضلاء ماردين[2] أنه وَرد عليها ونزل حيث لا يَخفى مكانُه ، لما كان عليه من التهويل واستعمال المخارق . فأرسل إليه ملكُها ابن أُرْتُق[3] فى أن يحضُر عنده . فقال للرسول : كيف أسير

---

(١) يريد « تاريخ حلب لابن العديم » . وعنه ينقل ابن سعيد ، وقد ذكره كاملاً (ص ٢٨) من هذا الكتاب . وثم كتاب آخر لابن سعيد ، هو زبدة الحلب .

(٢) ماردين ، بكسر الراء والدال : قلعة على قمة جبل الجزيرة مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين . كان فتْحها وفتح سائر الجزيرة أيام عمر بن الخطاب سنة تسع عشرة وأيام من محرم سنة عشرين . (انظر معجم البلدان لياقوت) .

(٣) كان على ماردين ابن أرتق قطب الدين ، وكانت وفاته سنة ٥٨٠ هـ . كما كان عليها بعده ناصر الدين أرتق ، وهو ولد قطب الدين السابق . وكانت وفاته ٦٣٧ هـ . (انظر وفيات الأعيان ، والنجوم الزاهرة ، وابن الأثير) .

إليه وأنا الذى أقول :

[مخلع البسيط]

أنا الذى لو دَرَى زمانِى قَدْرِىَ ما كان غيرَ عَبْدِى
ولم يَزَلْ واقفاً ببـــابى ولم يُصَرِّفْ خلاف قَصْدى

فعاد الرسولُ بالجواب . فضحك الملكُ وقال : هذا رجل مَجنون أو مُستخفّ ، وعلى الأمرَيْن ينبغى لنا أن نرى ما عنده . ثم ركب إليه واجتمع به وانصرف ، وقال للرسول : قل له : كان فلان قد نَظر لك فى ضيافةٍ وزادٍ قبل أَن يشاهد ما عندك ، فلما شاهده علم أنّ قَدْرك
[6a] / يَجِلّ عن كل ما عنده . فلما عاد إليه الرسول بذلك ، التفت إلى أحد أصحابه وقال : أىّ ولد زِنى ! وسمع ذلك الرسولُ فرجع وهو يضحك . فقال له الملك : ما كان جوابه ؟ قال : سَكت . قال : سُبحان الله ! أمن السكوت يكون ضَحِك ؟ فأخبره . فضحك حتى فَحص برجلَيْه وقال : الرجل مُمَخْرِق ، وقد علم أن مَخْرقته لم تَجُز علينا فَجعل هذا فصلَ ما بيننا وبينه .

وأخبرنى ابنُ الصفَّار الدِّينورى[1] أنّ شُميما اجتاز بمدينة دُنَيْسِر[2]،

---

(١) هو جلال الدين على بن يوسف بن شيبان ، كاتب شاعر . استكتبه الملك المنصور ناصر الدين أرتق صاحب ماردين . وله كتاب فى الأدب سماه « أنس الملوك » . ولد بماردين سنة خمس وسبعين وخمسمائة . وقتله التتر لما دخلوا ماردين سنة ثمان وخمسين وستمائة . (فوات الوفيات) .

(٢) دنيسر ، بضم أوله : بلدة من نواحى الجزيرة قرب ماردين بينهما فرسخان ، وتسمى أيضاً : قوج حصار . (معجم البلدان) .

فصادف أن كان بها صاحبُ ماردين ، فبلغه نزولُه فى بستان هنالك ، فركب كأنه يتفقّد البستانَ ، وغرضُه الاجتماعُ به . فقيل له : إن السلطان قد دخل البستان . فقال : ومن مَنعه ؟ ولم يَقُم له ولا لَقِيه . فصعُب على صاحب ماردين ذلك ، وأظهر أنه جاء للفُرجة ، وانصرف ولم يجتمع به . وجاءه مَن عَتَبه فى ذلك . فقال : كنت فى مُناجاة سُلطان أعظمَ منه . فقال صاحب ماردين : رُحِم عِيالُه ! / ولو كان الجُنَيد .[1] [7 a] ودَسّ إليه من يُؤذيه حتى خرج عن بلده .

---

(١) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادى الخزاز ، صوفى . توفى ببغداد سنة ٢٩٧هـ . (انظر الكامل لابن الأثير ، وحلية الأولياء) .

الترجمة الثانية

[العبدوسى]

الشاعر البارع المُحسن العَبْدوسىّ محمد بن عَبْدوس الواسطىّ[١] ، من مدينة واسط . أطلعتْه واسطةً من عقد شُعرائها ، فترقَّى إلى مُخالطة كبرائها وأُمرائها ، ثم جال حتى انتهى إلى الديار المصرية ، ومدح بها العادل[٢] وأرباب دولته ، ومدح الظاهر[٣] صاحب حلب بما اجتمع منه سِفْر . ذكر ذلك صاحبُ تاريخها . ولم يُعجبنى من جميع ما أَورد من شعره غيرُ قوله فى الملك المذكور :

[بسيط]

أشتاقُه شَوْقَ مَصْدودٍ وكم حَملتْ أُمُّ الأمانى برؤياه فلم تَلِدِ

وطبقته أعلى من هذا بأضعاف . ذاكرتُ أحد علماء بلدى فى شأنه، فنوَّه بأسمه وأَنشدنى له ما اخترته / لكتاب « كنوز الأدب » ، وهو [٦٥] قوله الذى أبدع فيه وأغرب :

---

(١) قال ابن الأثير فى وفيات سنة ٦٠١ : « وفيها فى صفر توفى أبو على الحسن بن محمد بن عبدوس الشاعر الواسطى . وهو من الشعراء المجيدين ، واجتمعت به بالموصل . وردها مادحاً لصاحبها نور الدين أرسلان شاه وغيره من المقدمين . وكان نعم الرجل ، حسن الصحبة والعشرة » .

(٢) هو الملك العادل أبو بكر محمد بن أيوب ، أخو السلطان صلاح الدين . استقل بمصر سنة ٥٩٦ هـ . وكانت وفاته سنة ٦١٥ هـ .

(٣) هو الظاهر الأيوبى غازى بن صلاح الدين . ولى حلب سنة ٥٨٢هـ . وبقى عليها إلى أن مات سنة ٦١٣ هـ .

[سريع]

أهـــلاً وسهلاً بالعِذَارِ الذى ... أصبحتُ فى شُغْلٍ به شاغلِ
خَطّان صِيغتْ منهما فى الهوَى ... « لا » وهى حرفُ النَّهْى للعاذل
يا سائِلى عن أمرها نُكتةً ... أضحى بها كالقَمَرِ الكامل
كأنها ذاكَ السَّـــوادُ الذى ... تُبْصِره فى البَدْرِ يا سائلى
فَجْر الصِّبا فى وَجْنتيه غـــدَا ... يَمُوج مثلَ البَحر الجائل
أما تُراه إذ طَفا ماؤه ... قد قَذَف العَنْبرَ فى الساحل

وقد أُزدحم على مَشْرع هذه الأبيات جملةٌ من شعراء عصره، فما بلغوا فيه إلاّ دون قَدْره.

وقولَه، وهو غير خارج من « كنوز الأدب »:

[مجزوء المديد]

وبديعٍ أَطْلع الآ ... سَ برَوْض الجُلّنَارِ
رُمْت منه لَثْمةً إذ ... عيلَ فى الحُبّ اصْطِبارى
قال لى لا تُدْنِ أَنْفاً ... سَكَ مِن نَبْت العِذَار
إننى أَخشَى عليـــه ... منك مِن لَفْح الأُوَار
قلت دعْنِى من رَقاعا ... تِك واسمع لاعتذارى
/ هو كالعَنْبرِ يَذْكُو ... طِيبُه مِن غير نار [7b]
فانثنَى يَبْسِم عن جَمْـــ ... ـرٍ شَبِيه بالدَّرارى
فرتَعْنا فى رِياضٍ ... وكَرَعْنا فى عُقَار
أىّ خَمْر أنا منها ... طولَ عُمرى فى خُمَار

وهو من الشعراء الذين حُفظ ما قالوه فى الجارية التى صنعت فى أحد خدّيها بالغالية حَيَّةً وفى الآخر عقرباً ، فأمر الملك العزيز[١] صاحب مصر أن يقال فيها . وكان قول العبدوسىّ : [سريع]

يا معشرَ النّاس ألاَ فاعجبوا ... مِن قمرٍ حَلَّ به [٢]العَقْربُ
وحَيّة مَيِّتة أُرْسِلَت ... فى جَنّة تَلْدغ مَن يَقْرُب
يا مُظْهِرًا آية مُوسَى لنا ... إليكَ مِن دُون الهوى المَهْرب

وكانت وفاته بمصر سنة إحدى وستمائة ، بعد ما أكثر من هجائها وذمّ أهلها . ومن أعفّ ذلك وأبدعه قولُه : (مجتث)

يأهلَ مِصْر مَدحتُمْ ... مِصرًا بلا بُرْهانِ
وقُلتمُ هِىَ عينٌ ... نَعَمْ بِلا [٣]إنسان
/ أرضٌ عَدِمْنا لديها ... عوارفَ الإحْسان [8 a]
وكلَّ بِرٍّ تراه ... فإنه فى اللِّسان
يومَ ارتحالىَ عنها ... جعلتُه مِهْرجان

وكان قد اتّصل بالوزير ابن مُجاور[٤] ، فلما بلغ الغاية من الاستيلاء على دولة العَزيز ، لمّا استبد بالديار المصرية ، قَصَّر به ، فأنشده :

---

(١) هو عماد الدين أبو الفتح عثمان بن يوسف بن أيوب . استقل بملك مصر بعد وفاة أبيه بدمشق سنة ٥٨٩ هـ . ولد بالقاهرة سنة ٥٦٧ هـ . وبها توفى سنة ٥٩٥ هـ . (انظر وفيات الأعيان ، والمقريزى ، ومفرج الكروب) .

(٢) العقرب : من الهوام ، وبرج فى السماء . والتورية هنا مرادة ، ولذا كان عجبه .

(٣) الإنسان ، للعين ، وواحد الناس . وأسمج به موريا .

(٤) ستأتى ترجمته . وهو ثالث من ترجم لهم المؤلف .

[طويل]

عجبتُ لبحرٍ جاد لى عند جَزْره ولم أَرَ جُوداً منه إذ جاءه المدُّ
لعلّ له عُذراً على كُلّ حالة هو المَلِك الأَعلى يَداً وأنا العبدُ

فقال : ما ثَمَّ عُذر ، لكن هذا شأن الدَّهر ، وعلى هذه الحال مَرَّت الليالى والأيام ، ولقد أحسنتَ إلىّ إذ ذكَّرتنى بفضيلة . ثم أحسن إليه وسَعى له فيما أقرّ عينه عند صاحبه . ومدحه بقصيدة منها :

[سريع]

يا سائِلى عمّا رأى من كَسًا ونِعْمة يَقصُر عنها الكَلامْ
قد كنتُ ذا جَدْب ولكنّنى أفلحتُ فاستمطرتُ صَوْبَ الغَمام
قام بأَمْرى سيِّدٌ ماجدٌ ذَكَّره عَتْبِىَ رَعْىَ الذِّمام
/ مُبارَكُ الطَّلعة مَيْمونُها يَبْدأ مَن يَخدُمه بالسَّلام [86]
قد جَرَّب الدهرَ وأحوالَه واُختار أَخلاق جميعِ الكِرام

ومن محاسن شعره قولُه :

[بسيط]

لله ذو أَدَبٍ حُلْوٍ شمائلُه لُقْياهُ أَطْيبُ لى من جُملة النِّعمِ
أَمسى يُحدِّثنى والكأْسُ فى يده فَبِتُّ أَشربُ راحَ الكَرْم والكَرَم

وأُنشدت له بالعراق هذه الأبيات ، وهى ممّا يُرتاح إليها فى السماع ، ويَهتزُّ لما اشتملت عليه كُلُّ كريم الطِّباع :

[بسيط]

لَيلِى بلا سَحَرٍ من ساحِرِ الحَوَرِ أشتاقُه وهو مُشتاق إلى السَّحَرِ
ولو أَتَى زائراً ما كان يَمْنعنى لقُرب ما بين حال الوِرْدِ والصَّدَر

فاللَّيلُ عندى سواء إنْ دَنَا وقَلاَ ... أَشْكومن الطُّول ماأَشكومن القِصَر

يا خالياً حالياً بالُحسن ها كَبِدى ... أَمستْ بلا جَلَد قَوْساً بلا وَتَر

الظَّبْى أنت وقدحُوشيتَ من خَنَسٍ ... والبدرُ أَنت مُوَقَّى كُلْفَةَ[1] الغِيَر

والخَمْر أنتَ ولكنْ سُكْرها أبداً ... والغُصن أنت ولكن دائمُ الزَّهَر

لا جَفَّف اللهُ عَينى مِن هَوَاكَ ولَا ... مُتِّعتُ مِن غير ذاكَ الوَجْه بالبَصَر

[9a] / ورأيت جماعةً من أُدباء العراق يتطاولون بإنشاد هذه الأبيات ويفتخرون بها ، وهى لعمرى أهلٌ لذلك ، إلا أن بيته الذى هو واسطةُ القِلادة مَسروق من قول اللّص الإشبيلى[2] :

فالليلُ إنْ هجرتْ كالَّليل إن وصلتْ[3]

أَشكو من الطُّول ما أَشكو من القِصَرِ

---

(١) الخنس ، بفتحتين : قريب من الفطس ، وهو لصوق القصبة بالوجنة وضخم الأرنبة ، وهو وصف خاص بالظباء والبقر . والكلفة : حمرة كدرة . وقيل : هى لون بين السواد والخضرة .

(٢) هو أبو العباس أحمد بن على بن محمد — وقيل : أحمد بن محمد بن على — ابن عبدالملك بن سيد الكنانى الإشبيلى ، ولقب باللص لإغارته على أشعار غيره . وهو أحد من أنشد عبد المؤمن بجبل الفتح عند جوازه البحر للأندلس . كانت وفاته سنة ٥٨٧ من الهجرة . وقيل : ثمان وثمانين . كما كان مولده سنة ٥٠٢ هـ وقيل : ٥٠٣ هـ . (انظر نفح الطيب ، وبغية الوعاة للسيوطى ، والمطرب لابن دحية ، ورايات المبرزين) .

(٣) رواية هذا الشطر فى نفح الطيب :

« فالليل إن وصلت كالليل إن هجرت »

وهذا كما قال الملك الأشرف[١] لبعض الشعراء وقد مدحه بقصيدة فيها أبياتٌ سَلَخ ألفاظها ومعانيها من شعر غيره : أما تستحى أن تُنشدنى لنفسك ما أحفظه لغيرك ؟ فقال : يا سلطان ، قد يقع الحافرُ على الحافر . فقال : نعم ، ولكن للميدان كلِّه لا . فضحك جميعُ من حضر من أهل الأدب . وصار ذلك الشخص عندهم يُعرف بالميدانىّ .

وأخبرنى بدمشق أحدُ أقارب الصفىّ الأُموى[٢] كاتب الملك الأشرف بن العادل بن أيوب ، أن ابن عَبْدوس وصل إلى الملك الأشرف وهو حينئذ بالجزيرة فى مدة أبيه ، والحال ضيقة ، فحضر مجلسَه وأنشده قصيدةً منها :

[كامل]

/ مَلِكٌ شَكَكْنا أيُّها أعلَى عُلاً أُولاهُ أَم وُسْطاه أم أُخْراه [9b]

لمّا عَلا فوق الأَنام مَحلُّه مَسحتْ عليهم كالسَّحاب يَدَاه

أَشتاق رُؤيتَه لأنّىَ واثقٌ أَلاَّ أَرَى بُؤْساً متَى ألقاه

فضحك الأشرف لمّا أنتهى إلى هذا البيت وقال : ذهب البوس يابن عبدوس . إلا أنه نحن على ما لا يَخفى عنك فى هذا الوقت ، فأيما

---

(١) هو الأشرف موسى بن محمد العادل بن أيوب . ومن آثاره دار الحديث الأشرفية بدمشق . ولد بالقاهرة سنة ٥٧٨هـ . وتوفى بدمشق سنة ٦٣٥هـ . (انظر وفيات الأعيان) .

(٢) هو صفى الدين عبد الله بن على بن شكر . أصله من الدميرة ، إحدى قرى مركز طلخة بمديرية الغربية . وزر للعادل . ومات بالقاهرة سنة ٦٣٠هـ (انظر النجوم الزاهرة) .

تختار : يَسيرٌ مُعجَّل ، أو كثير مؤجل ؟ فقال : يا خُوَند[1] ، إنما يصبر على المؤجَّل التُّجار أصحاب رءوس الأموال ، وأما المُفلسون الذين رءوس أموالهم الأشعار مثلى وأشباهى فإنما هم أبناء يومهم . قال : صدقتَ ، والتفت إلى الصّفىّ كاتبه وقال : بحياتى عليك إلا ما أجزته عنى . فقال : نعم وكرامة . وانصرف به إلى منزله ، وحَلف له أنه ما يملك فى ذمته شيئاً يقدر على خروجه عنه والتعوّض منه إلا البغلة التى يركبها ، ودَفعها إليه وألبسه ثيابه التى كانت عليه . فَجُنّ فرحاً ، وأطنب فى الثناء / على الملك والكاتب وقال : هذا عندى فى هذا [10a] الوقت خير من عشرة آلاف دينار فى وقت آخر .

قال : وهكذا كانت أفعال الملك الأشرف فى أكثر الأوقات ، إذ كان أعرفَ الناس باستجلاب الثناء فى كل وقت وبكُل ما أمكن .

قال : ومما أنشده لنفسه فاستحسنه الصفىُّ وكَتَبه ، قولُه :

[مخلع البسيط]

أُسمعْ أخِى مِن أخٍ اختبارٍ قد شَيَّبت رأسَه الرِّجالُ
إيّاكَ أَن تَشْتفى بقولٍ فيـــه على ربِّه وَبَال
وبَلِّغ النَّفْسَ ما تَمنَّتْ إذا تأتَّى لك الفَعال

---

(١) خوند (khowand) : لفظة فارسية بمعنى : سيد أو أمير . (انظر : F. Steingas. Persian-English Dictionary.

الترجمـــة الثالثة

[ابن مجاور]

الوزير الجواد المُجيد نجم الدين بن مُجاور يوسف بن الحسُين .

بيت بنى مُجاور بدمشق مشهور إلى الآن . لزمهم هذا النَّسب من جدّهم ، رفض جَنّة الدنيا دمشق ولزم المجاورة بمكة ، فعُرف بالمُجاور .

ونشأ نجم / الدِّين مُتغذِّياً بتلك الطريقة ملتزماً قراءة القرآن [106b] وإقراءه ، واتخذ مكتباً يُعلم فيه الصبيان على باب جامع دمشق . وسَمَتْ همّته إلى إقراء النحو والأدب ، واستفاد من ذلك ما علَّم به أولاد الكُبراء ، إلى أن احتاج السلطانُ صلاح الدين معلِّماً لابنه العزيز[1] ، فدُلّ عليه ، ووُصفت طريقته الحميدة فأخذت السعادةُ بيديه .

وأنس به العزيزُ فساد بخدمته فى بلده وغير بلده ، ووكَّله فى أول الحال ، ثم استوزره فى نيابته عن أبيه بمصر ، ثم فوَّض له جميع أمور دولته لما مات أبوه واستبدّ بالسلطنة . وكان أهلاً لذلك ، لِما جمع من الفضائل والآداب ومكارم الأخلاق .

وكان معروفاً بتوطئة الأكناف ، ومعاونة الأدباء والشعراء ، والأخذ معهم غيرَ متميِّز عنهم ، حتى كأنّه إذا باحثهم واحدٌ منهم ، مع ارتقاءٍ فى الشعر إلى الدرجة التى تأخذ بمجامع القلوب والألباب ،

---

(١) سبقت ترجمته (فى الحاشية ١ ص ١٨) .

[١١٥] / وترتفع عن طبقة العلماء والأدباء والكتّاب . ومَنْ أمعن الفكر فيما أُورِدَ له فى هذا المجموع علم أن له فكرةً غواصة ، وأن معانىَ الإغراب وألفاظ الإبداع ليست عليه بمُعْتاصة .

ومن الحكايات المُستطرفة المُتعلقة بترجمته أنّ ابن مُنذر البَطَلْيَوسى لما وَرد من المغرب اعترضه وهو قاصدٌ دار السلطان ، فكلّفه رفعَ بطاقة إليه فى مرتّب يستعين به على طلب العلم . فأعلمه أنّ الكلام فى إجراء راتب مُخترع لا يمكن . فقال : فإن لم يمكن هذا فاكتُب إلى الفقيه فلان فى أن يُنزلنى عنده فى المدرسة ويُجرىَ لى من الوَقف ما يكفينى . فقال : ليس هذا من شُغلى وإنما هو من شُغل متولّى الأوقاف . فأظهر أنه لا ينفصل عنه إلا بالنظر فى أمره ، وجعل يُورد [١١٥b] عليه من أنواع التّكليف ما يرُوغ الوزيرُ عنه / إلى أن أضجره . فأراد الانفصالَ عنه فقال : يا هذا ، أعلم أنه من كَلّف ما لا يُقدر عليه أتعب لسانَه وسَمْعَ من يُكلّمه . فقال : أيها الوزير ، أتَعِد إن أنا كلفتُك ما تستطيع لم تعتذر لى عنه ؟ قال : ما أعتذر لك عن شىء أستطيعه . قال : وأنا أيضاً فما أُكلفك إلا أن ترجع إلى تعليم الصِّبيان فى المكتب الذى كنتَ فيه ، فتستريحَ أنت مِن كلَف الناس ويستريح الناسُ من هذه الوزارة الخراء التى لا فائدة فيها ، وقد شغلت مكانَها عن مُستحقها ممن يفرح بقضاء حوائج الناس ، ويتكلّف المشقاتِ فى تَخليد شُكرهم . فضحك الوزيرُ ضحكا لم يُعْهد منه مثله ، وقال له :

أىْ وأنت على هذا المنزع ، وفيك هذه الحلاوة ، ولستَ من المغاربة الجُفاة ، ففيك مُصْطنَع ، ونَبلغ إن شاء الله فى شأنك فوق ما تقدر عليه . وحَمَله معه حتى أدخله على العزيز ، فأعاد عليه ماجرى بينه وبين الوزير. فضحك واُستطاب القصة وصيّره من خواصه وانتفع بخدمته غاية [124a] / الاُنتفاع . حتى اُشتهر ذكره وصار كالوكيل والأمين ، وانتقل بعد ذلك إلى حلب فصار فى خدمة أخيه الظاهر[1] .

ومن الحكايات التى اُخترتها لكتاب « روح الأدب » وشعرُها من « كُنوز المعانى » ما أخبرنى به أبو بيَان الإسرائيلى[2] حكيم الديار المِصْرية وبقية المُعمَّرين من أشياخها ، المُمازجين للملوك وأرباب الدُّول ، قال : أُهدى للملك العزيز بن صلاح الدين مملوكٌ من القفْجق[3] ، كما دبّ عِذارُه بشُقْرة ، لا يراه أحدٌ فيقدر أن يَثْنِىَ عنه بَصره . فقال

---

(١) هو الظاهر الأيوبى غازى بن صلاح الدين يوسف بن أيوب . ولد بالقاهرة سنة ٥٦٨ هـ. وولاه أبوه حلب سنة ٥٨٢ هـ. وبقى فيها إلى أن توفى بقلعتها سنة ٦١٣ هـ . (انظر ابن خلكان ، والكامل فى التاريخ) .

(٢) هو أبو البيان بن المدور ، لقب بالسديد . وكان يهوديا قراء عالماً بصناعة الطب . خدم الخلفاء الفاطميين فى آخر دولتهم . وبعد ذلك خدم الملك صلاح الدين. وكان يرى له ويعتمد على معالجته ، وعمر طويلا. وتعطل آخر عمره من الكبر والضعف . توفى سنة ٥٨٠ هـ (انظر عيون الأنباء ٢ : ١١٥) .

(٣) ذكر البيهقى أنهم الخفشاخ الذين صاروا يعرفون بالقفجاق ، وكان لهم ملوك كثيرة ، ففرق التتر شملهم .

وقيل إن بلادهم هى بلاد أزبك ، أرض القبائل الذهبية التى كانت تمتد شمالى بحر بنطش وبحر قزوين إلى منابع نهرى أرقش وأوبى من سيبريا . (انظر تقويم البلدان ، والنجوم الزاهرة ١٠ : ١٩٦ . ودائرة المعارف الإسلامية فى رسم : Kipchak) .

الملك العزيز لجلسائه الأُدباء : نجعل هذا المملوك الجديد ساقينا اليوم . فلما اُستقرّ مجلسُ الأُنس — وفيه جعفر بن شمس الخلافة[1]، والأسعد ابن مماتى[2]، وهما حينئذ الغاية فى طبقة الشعراء، وهناك من يَشْعُر غيرهما — قال لهم ، وقد أخذت / الكأسُ منهم وأزالت حجاب [12 b] الحياء عنهم : هذا مكان الأفكار وإجالتها ، وأشار إلى المملوك . فأفكروا ساعةً فلم يحضُر لهم ما يرضوْنه ، فقالوا : يامولانا ، إن الوزير نجم الدين له شغف بالمعذَّرين وأوصافهم ، بفكرة منقادة لتعلّقه بهم ، وما لهذا إلا خاطرُه . فقال : نَسُرُّه بالمشاركة فى هذا الشأن ولا نضيره بالاستدعاء للحضور على مالا يريده . ثم أمر بالكَتْب له فى ذلك . فوصل جوابُه بهذه الأبيات التى لا نظير لها فى حُسنها ، ولا عديلَ لقصدها فى فَنِّها :

[سريع]

غُصْنٌ من الفِضَّةِ قد أَوْرَقَا ... بالتِّبْرِ مَن فاز به وُفِّقَا

رَوَّاه ساقِى الحُسن من مائِه ... فبان فى أعلاه ما قد سَقَى

ومُنْتَهى الأَحْرُف من خَطِّه ... فى جانبَىْ صُدغيه قد عُرِّقَا

---

(١) هو الشاعر المشهور أبو الفضل جعفر بن شمس الخلافة أبو عبد الله محمد بن شمس الخلافة مختار الأفضلى الملقب بمجد الملك . له ديوان شعر . ولد فى المحرم سنة ٥٤٣ هـ . وتوفى سنة ٦٢٢هـ بالكوم الأحمر ظاهر مصر . (انظر وفيات الأعيان) .

(٢) هو أبو المكارم أسعد بن مهذب بن مينا بن زكريا بن أبى قدامة ابن أبى مليح مماتى (بفتح الميمين والثانية منهما مشددة) . كان ناظر الدواوين فى الديار المصرية . ولد بمصر سنة ٥٤٤ هـ . وكانت وفاته بحلب سنة ٦٠٦ هـ . ومن مؤلفاته : قوانين الدواوين . ونظم سيرة السلطان صلاح . (انظر وفيات الأعيان ، ومعجم الأدباء ، وإنباه الرواة) .

يا حُسْنَه نُونًا بماءٍ جَرَى ودارَ كالعَقْـرب كى يُتَّقَى
فاغتنمُوا بدراً بَدَا كاملاً فى شَفَق مِن قَبل أن يُمْحَقا
لا أَبصرتْـه مقلةٌ ذاوياً ولا رأت زُخرفَه [1]مُحْرَقا

[12a] / فطرب الملكُ العزيز ، ووالَى الشُّرْب وأَمر المُغنى بالغناء فيها . ثم قال للخازن : أَحضِر جميع ما أُهدى إلينا مع هذا المَلوك . فأُحضِر وقُوِّم ، فكانت قيمته عشرة آلاف دينار مِصرية . فقال : لو أن نجم الدين كمَّل أبياته عشرة لفاز بجملتها ، ولـكن يأخذ منها ستة آلافٍ ويقتسمون الباقى .

ثم أطال النظر فى المملوك فقال له : كُن أنت الرسول إليه بهذا ، وأنت من جُملة ما حبَوْناه به .

قال أبو بَيَان : فلا ندرى من أى شىء نعجب ، فهل ممّا تضمّنته هذه الحكاية من الأخلاق الملوكيّة ؟ وهى على ما جمعْته نقطةٌ من بحار فضائله رحمة الله عليه ، فما ملك مصرَ مثلُه .

ومما استحسنه الملك العزيز ، فأمر شعراءه بالقول فيه ، قصة الجارية التى صَوَّرَت فى خدِّها بالمِسك حيَّة ، وكان الذى قال فى ذلك وزيره المذكور[2] .

---

(١) محرقاً : قد أصابه الحرق فذهب بمباهيه .

(٢) انظر شيئاً حول هذا (ص ١٧) فى الترجمة الثانية السابقة ، وهى ترجمة العبدوسى .

[سريع]

قد رَقَمتْ فى خَـــدِّها أَرقماً بالمسْك فى مُذْهبِ ثَوْبٍ طَسِيم[١]

ما ذاق مَنْ قابلهُ غَفْوةً يا عجباً مِنْ ساهرٍ بالرَّقيم[٢]

مُرْسَلَة بالحُسْن قد أَظهرت فى نار إبراهيم أَيْم الكَليم[٣]

ووقفتُ على ترجمته فى تاريخ حلب لابن العديم فوجدتُ هنالك أَنه مات سنة إحدى وستمائة .

وقوله الطيّار لخفّته على الألسن وحُسْن منزعه :

[طويل]

ولما تولّى الخــدَّ والِى عِذَارِهِ رفعتُ إليــه قصّــتى أَتظلَّمُ

فوقَّع فيهــا خَطّه بصَبَابتى وقال لى السُّــلوان شىء مُحرَّم

أتلبس ثوبَ الخدّ إذ كان ساذجاً وتخلعه لمّا بدا وهو مُعْلَم[٤]

ثم وجدت الشهابَ القُوصىّ[٥] قد أَثنى عليه فى كتاب « تاج

---

(١) طسيم ، بمعنى مطسوم ، وهو ما علاه الغسم والظلمة . وهو بالخد الذى مازجه سواد المسك أشبه .

(٢) الرقيم ، قيل : هو اسم الجبل الذى كان فيه الكهف : كما قيل إنه اسم القرية التى كانوا فيها . ويشير إلى نومة أهل الكهف وينكر أن يكون من بينهم يقظ ساهر .

(٣) الكليم ، هو موسى عليه السلام ، لأن الله كلمه . وأيمه ، حيته ، وقصتها معروفة .

(٤) المعلم من الثياب : المرسوم المرقم .

(٥) هو أبو المحامد ، وأبو العرب ، وأبو الفداء ، وأبو الطاهر إسماعيل بن حامد بن عبد الرحمن الفقيه الشافعى . توفى سنة ٦٥٣ هـ عن ثمانين سنة . (انظر النجوم الزاهرة ، والطالع السعيد) . وكتابه « تاج المعاجم » فى التاريخ . وهو فى أربعة مجلدات كبار وقد أخبرنى صديقى الأستاذ صلاح المنجد أن منه مخطوطة بالمكتبة الظاهرية .

المعاجم » وأنشد له قولَه ، وهو من المحاسن التى لا يجب أن تُغفل :

[كامل]

يا ثَغرَه المَحْمِيَّ منـــه بنابِلٍ ... من طَرفه وبسائف من خدِّه
وبمُشرقٍ من صُدْغه وبناظرٍ ... من خاله وبعامِلٍ من قدِّه
ارفُق بما اُغتصب الغرامُ فقد أتى ... خَطّ العِـــذار موقّعاً فى ردّه

وأنشد له ابنُ المُستوفى فى تاريخ إرْبل[1] :

[سريع]

ليت رقيـــبى لم يكُن أحولَا ... إذ لم يكن أعْمَى ولا أعْـــوَرا
لأنّ مَن يُبْصر مِن واحدٍ ... شَيْئين أولى الناس أنْ يُحْذَرا

وجرى ذكره يوماً بحضرة الصاحب بهاء الدين زُهير[2] صاحب الأشعار الرقيقة الطائرة فى أقطار الشرق والمغرب ، فقال : ودِدْتُ أن لى قولَه بكثير من شعرى ، فما سمعت أظرف منه :

[وافر]

صَـــدِيقٌ قال لى لمّا رآنِى ... وقد صَلّيتُ زُهداً ثم صُمْتُ
على يدِ أىّ شَيخ تُبتَ قُل لى ... فقلتُ على يد الإفلاس تُبْتُ

---

(١) هو أبو البركات المبارك بن أبى الفتح أحمد بن موهوب بن غنيمة بن غالب اللخمى ، الملقب بشرف الدين ، والمعروف بابن المستوفى ، جمع لإربل تاريخاً فى أربع مجلدات . وفيه يقول ابن خلكان : « وقد أحلت عليه فى هذا الكتاب فى مواضع عديدة » . ولد بإربل سنة ٥٦٤ هـ . وتوفى بالموصل سنة ٦٣٧ هـ . (انظر وفيات الأعيان . وبغية الوعاة . والحاشية رقم ٤ ص ٩ من هذا الكتاب) .

(٢) هو بهاء الدين زهير بن محمد بن على بن يحيى المهلبى العتكى الكاتب الشاعر . ولد بمكة سنة ٥٨١ هـ . ونشأ بقوص واتصل بخدمة الملك الصالح نجم الدين بمصر فجعله من خواص كتابه . وكانت وفاته سنة ٦٥٦ هـ . ودفن بالقرافة الصغرى بالقرب من قبة الإمام الشافعى . (انظر وفيات الأعيان) .

الترجمة الرابعة

[ابن نفادة]

الرئيس الشاعر المُتقدِّم شمسُ الدولة أَحمد بن نَفادة السُّلمى الدّمشقىّ.

كان عند السُّلطان صَلاح الدِّين بن أَيُّوب فى عِداد رُؤساء الأَجناد الذين يُسمونهم بالأُمراء .

ذَكر الشِّهاب القُوصى فى « تاج المعاجم » أَنه كان جليلَ القَدْر بعيدَ / الهمّة أديباً شاعرًا . [14b]

وُلد بدمشقَ سنةَ إحدى وأَربعين وخَمسمائة ، ومات بها فى محرَّم سنة إحدى وستّمائة .

وأَنشد له — مما طَوَّل فيه من الأَشعار — ما يَدُلّ على اقتداره وطُول نَفَسه .

ومما يُعدُّ من « كنوز الأدب » قولُه ، وقد دَخل على الفاضل البَيْسانى[1] مُهنِّئًا له : [سريع]

قد عُوفِى الفاضلُ مما شَكَا وصَحَّ من سائِر آلامِهِ

---

(١) هو أبو على عبد الرحيم بن على بن محمد بن الحسن بن الحسين بن أحمد بن الفرج بن أحمد اللخمى ، العسقلانى المولد ، المصرى الدار . وبيسان ، التى ينسب إليها : مدينة بالأردن بالغور الشامى .

وزر لصلاح الدين وكان أثيراً عنده . ولد سنة ٥٢٩ هـ بعسقلان . وتوفى بالقاهرة سنة ٥٩٦ هـ . (انظر وفيات الأعيان . والكامل فى التاريخ . ومعجم البلدان فى رسم : بيسان) .

وذاك أنّ الداءَ لمّا أتى ... إليه فى جُملة خُدّامه
أَجَلَّه أنْ يَعْترى جسْمَه ... مَعْرِفةً منه بإعْظامه
ورامَ تَوديعًا له فاُثنَى ... يَرغب فى تَقبيل أَقْدامه
فلم يكُن بُدٌّ مِن اُسعافِه ... جَرْيًا على مَعهود إنْعامه

أَخبرنى الشهابُ أنه لما أَنشد هذه الأبياتَ قال له الفاضلُ : أبياتُك هذه يا شمسَ الدَّولة خيرٌ من العافية ، ما سمعتُ فى معناها أَحسنَ منها ، وأحسنُ ما فيها أنها من ربِّ سَيْف .

قال : ودَخل على الصَّفىّ[1] ابن شُكر / وزير العادل[2] ، وقد فَهِم [15a] عنه تَقصيرًا فى حقّه فأَنشده : [متقارب]

أيا مَن مودَّتُه لم تَزَلْ ... إذا ما اُرتقَى رُتبةً أو وَلِى
أُعيذك من غَفْلةٍ تَعْترِى ... جَلالَك عن خادم أو وَلِى
إذا لم تَزِدْنى على رُتْبتى ... فعُدْ بى إلى حالىَ الأَوَّل

فقال : بل لا أَقنع لك إلّا بالمَزيد ، ولا أَعتذر لك إلا بالفِعل .

وشِعْره مُدوَّنٌ ، ظَفِرتُ به عند شَخص لا يَسمح بإعارته ولا مُطالعته ، فحفظتُ منه هذه الأبيات ، وهى عُنوان عما تضمَّنه من البدائع والغرائب :

---

(١) انظر الحاشية (رقم ٢ ص ٢١) من هذا الكتاب .
(٢) انظر الحاشية (رقم ٢ ص ١٦) من هذا الكتاب .

[كامل]

شاقَ الحَمامَ فباح بالأشجانِ ... عِقْدُ النَّدَى فى جِيد غُصْن البانِ

وتَأوُّدُ الغِيدِ النَّواعم شاقَنى ... فـله ولِى نَوْحٌ على الأَغْصان

لِى بالحُدوج وبالغَوانِى صَبابةٌ ... وله بوَرْدِ الرَّوض[1] والرَّيحان

ولو أنّنى واصلتُ من أَحْبيتهُ ... يومًا لكان وكنتُ فى بُستان

وبمُهْجتى خَنِثُ اللِّحاظ جُفُونُه ... نَشِطتْ لقَتلى نِشْطةَ الكَسْلان

---

(١) الحدوج : جمع حدج ، بالكسر ، وهو مركب من مراكب النساء، نحو الهودج والمحفة .

الترجمة الخامسة

[التلمساني]

قاضي الجماعة الأديب المُتفنّن / أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن [15b]
مَروان التِّلمِسانيّ .

ذكره التاج ابنُ حَمّويه الدِّمشقي في رحلته المغربيّة[1] وأَخبر أنه من المريّة[2] أصلاً . وكان والدُه من الأجناد ، تقدّم وساد ووَلى مدينةَ وهْران . وبها وُلد أبو عبد الله ، ونشأ بتلمسان[3] مُجدًّا في الفقه والأدب ، ومال لعِلم الظاهر ، وأكثرَ من مُطالعة كتب ابن حَزْم[4]

---

(١) هو أبو المظفر صدر الدين محمد بن عمر بن علي بن حمويه الدمشقي الكاملي . كان مولده سنة ٥٧٢ هـ كما كانت وفاته سنة ٦٥٢ هـ .

وله مصنفات عدة ألفها للملك الكامل . وكانت له مشيخة الشيوخ بمصر . ورحل رحلة واسعة طاف فيها بفلسطين والمغرب ، واتصل بصاحب مراكش المنصور بن عبد المؤمن ، ومن كتبه « تقويم النديم وعقبى النعيم المقيم » . بدار الكتب المصرية منه نسخة خطية برقم (١٥٠١ أدب) وبآخرها ترجمة المؤلف ونبذة من تاريخه تشمل بعض رحلاته ومصنفاته .

(٢) المرية (Al meria) : مدينة بالأندلس محدثة ، أمر ببنائها عبد الرحمن الناصر سنة ٣٤٤ هـ . (انظر الروض المعطار . ومعجم البلدان . والمعجب) .

(٣) تلمسان ، بكسرتين وسكون الميم . ويقال فيها « تنمسان » بالنون عوض اللام : مدينتان متجاورتان ؛ إحداهما قديمة والأخرى حديثة . فالحديثة اختطها الملثمون . وكان اسمها تافرزت ، وكانت لسكنى الجند . واسم القديمة قادير ، وكانت لسكنى الرعية . قال ياقوت : فهي كالفسطاط والقاهرة من أرض مصر . (انظر معجم البلدان لياقوت) .

(٤) هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم . كان حافظاً عالماً =

فاشتهر بذلك ، وصادف انحرافَ المنصور[1] عن كتب الفروع وميْله إلى مذهب أهل الحديث ، فتقدّم عنده إلى أن ولّاه قَضاء قُضاته ، فأبان عن صَرامة وعِفّة ومُروءة .

وكان ممّن له مُشاركة فى صناعتى النّظم والنثر .

وذكره والدى فيمن لَقِيه من أهل العلم وأطنب فى الثّناء عليه من جهة التعصّب والسّعى الجميل فى حَقّ من أعتمد عليه ، مع خُلق أندى من النّسيم ، وأدبٍ آنَقَ من الوجه الوَسيم . / قال : إلّا أنّ حِفظه وعلمه بالأدب فوق شِعره . [16a]

وأحسنُ ما أورده منه قولُه فى المَنصور ، وله فيه أمداح كثيرة ، أورد منها ما رأيتُ الاقتناعَ ببعضه كافٍ :

[طويل]

أسيِّدَنا يابْن الإمامَيْن أمرُكم ... مَنُوطٌ بأمر الله ما عنه مَعْدِلُ

نُصِرتُم لأنّ الحق آنَ ظُهورُه ... وناصِرُه فى الله ما كان يُخْذَل

= بعلوم الحديث ، شافعى المذهب ثم ظاهريًّا . وله من الكتب المحلى ، والفصل فى الملل والأهواء والنحل ، وغيرهما .

ولد بقرطبة سنة ٣٨٤ هـ . وتوفى ببادية لبلة منفيا سنة ٤٥٦ هـ . (انظر وفيات الأعيان ، وجذوة المقتبس) .

(١) هو أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، المنصور بالله . بويع له بمراكش بعد وفاة أبيه سنة ٥٨٠ هـ . وتوفى ٥٩٥ هـ . بمدينة سلا . (انظر الكامل فى التاريخ ، ووفيات الأعيان ، والمعجب ، والحلل الموشية) .

أَزَلتُم على ما يَنفع الناس جهلَها ... وعلَّمتم فى الدِّين ما كان يُجْهل

وأَوردتُم السَّلسال مَن شَفَّه الظَّما ... أَوانَ جرَى ذاك الحديثُ المُسلسَل[1]

قَطعتم فُروعًا قد أَضرَّت بأَصلها ... ألا هكذا من كان بالعدل يَشْمل

ملأْتم بساطَ الأَرض خيراً وما بَقِى ... فأخبارُكم فيه تَسير وتُنْقَل[2]

أَقِمْ إن تَسِرْ نحو المَمالك راحلًا ... فسا كنُها شوقًا لعَدْلك يَرْحل

ومن نادر الحكايات أنه كان قد لَزِم أبا جعفر بن مَضاء[3] قاضى القضاة مدةً ، وكان يُثقلُ عليه بالطبع ويخف عليه بالتصنيع ، فسأله فى بعض الأوقات عن حاله ، فارتجل هذه الأبيات :

[مجتث]

يا من مضى وتَسمَّى ... ولم يَخُنْه زمانُه

سألتَنى كيف حالى ... وقد كَفاك عِيانُه

إنْ كان عندك خَيْرٌ ... يُرْجَى فهذا أَوانه

---

(١) المسلسل : المتصل الرجال .

(٢) يريد « ببساط الأرض » سهلها ، و « بما بقى » وعرها وحزنها . أى إن خيره طبق الوهاد والنجاد .

(٣) هو أبو جعفر وأبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن سعد بن حريث بن عاصم بن مضاء اللخمى قاضى الجماعة . وهو أحد من ختمت بهم المائة السادسة من أفراد العلماء .

ولى قضاء فاس وغيرها . وكان مولده بقرطبة سنة ٥١٣ هـ ومات بإشبيلية ٥٩٢ هـ . (انظر بغية الوعاة ، والمعجب) .

فقال : يكون الخيرُ إن شاء الله ولأَسعينّ فيه جَهْدى . ثم جعل يَسْتنيبه ويرشّحه لما هو أهله . فقال له بعض أصدقائه : أراكَ تُقدِّم هذا الرجل وتُعينه على نفسك . فضحك ابنُ مضاء وقال : الرأى ما ظننتَه ، إنه غير رأيى ، هذا رجل لاحتْ لى فيه بوارقُ السعادة ولا بُدَّ أن يتقدَّم رضيتُ أم سخطت، والأولى أنْ أُظهر أنّ تقديمه بترشيحى وسَعْيى له ، فإن وَفَى اشتركنا فى حمد الناس ، وإن لم يَفِ انفرد باللائمة .

ثم إن ابن مضاء مرض فى سفرة المنصور إلى إفريقيه سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، فاشتغل ابن مروان بالحكم بين الناس ، فظهر منه من حُسن الخلق والسياسة ما اشتهر به اسمُه ونُسى معه ابن مَضاء ، فما استقلّ ابنُ مضاء من مرضه إلا وقد حاكَ[1] فى قلب المَنصور أن [17a] يجعله قاضى الجماعة / فكان ذلك ، وصار ابن مضاء إذا رآه والناس مُقبلون عليه أنشد :

[طويل]

ومايَسْتوى الثَّوبان ثوبٌ به البِلَى وثوبٌ بأيدى البائعين جَديدُ

ولم يزل أبو عبد الله قاضياً للمنصور إلى أن كانت سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة ، فوقع بينه وبين أبى القاسم بن بَقِّى[2] كلامٌ أظهر فيه ابنُ مروان الاقتدارَ عليه ، فأنشده ابن بَقِّى :

---

(١) حاك القول فى القلب حيكاً : أخذ .

(٢) هو أبو القاسم أحمد بن محمد بن بقى بن مخلد، الفقيه المحدث . ولى القضاء بعد موت ابن أبى عبد الله ، ولم يزل قاضياً إلى أن توفى أمير المؤمنين أبى يوسف وسنة من أيام ابنه محمد . (انظر المعجب، ونفح الطيب) .

[سريع]

الدهرُ لا يَبقى على حالةٍ لكنه يُقبِل أو يُدْبِرُ
فإنْ تلقّاكَ بمَكروهه فاُصبر فإنّ الدهر لا يَصْبِر

واُتفق أن سُعى فى إثر ذلك باُبن مَروان ، ونُسب له تقصير فى صَدقاتٍ خَرجت على يده ، فعَزَله المنصورُ وولّى على قضاء الجماعة اُبنَ بَقِّى المذكور. فلقيه اُبنُ مروان فى إثر ذلك ، وكان مُفاكهاً حسنَ الخُلق طيّبَ النفس ، فقال له : أَفترى ؟ لقد أَقبل وأَدبر ونحن نَصبر كما صبرتَ ! فاُستحيا اُبنُ بَقِّى فلم يُجاوبه بحرف .

/ ثم لمّا وَلِى الناصرُ[1] ردَّه إلى قضاء الجماعة ، فلم يزل عليه إلى أن [17 b] مات فى سنة إحدى وستمائة .

ومما شَنَّع عليه أعداؤه أنه نَزل بتِلِمْسان فى دار يهودىّ ، فاُحتفل فى إكرامه وأَحضر له جميعَ ما قدر عليه ، فخلا به وذاكره فى دينه ، ثم داعبه حتى أَحضر له من طاهورتهم . فيقال إنه قال : يا إسرائيلى ، دياركم نَظيفة ، وطعامكم طيب ، وشرابكم رائق ، ما أظنكم إلا على الحق .

قال والدى : ما تكاد تجد فقيهاً من طَلبة الغَرب إلّا وهو يحفظ هذه الحكاية ، وقد سارت بها الرُّكبان ، والله أعلم بالحقائق .

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على . الناصر لدين الله من خلفاء الموحدين . يويع له بعهد أبيه إليه بعد وفاة أبيه سنة ٥٩٥ هـ . وفى أيامه كانت وقعة العقاب المشهورة . وكان مولده سنة ٥٧٦هـ كما كانت وفاته سنة ٦١٠ هـ. (انظر المعجب . دول الإسلام للذهبى ٢ : ٨٥) .

وأنشدنى له ابنُه الكاتب القاضى أبو زكريّا شعرًا يَصف فيه دعوة صَنعها بعضُ أصدقائه واُحتفل فيها ، وكان هو المُتصرف بين أيديهم بنفسه ، فعَلِق بخاطرى منه قولُه :

[سريع]

يا حَبَّذا دعوتُك المُرتضَى جميعُها من كُل فَضْلٍ عَمِيمْ
كأنّنا الأغصانُ سُكرًا بها وأنت فيما بيننا كالنَّسيم

[184a] / وقولُه، وهو فى غاية من الحُسن ، ولم أَسمع فى معناه مثلَه :

وجاءنا خُبْزٌ رأَينـــا به فى هالة الخَيْر وُجوهَ النَّعِيم

وكان أبنُه مثلَه فى حفظ الأَدب والتخصّص ، وولى قضاء المريّة والكتابة عن الأَمير أبى بَحر[1] ، اُبن مولانا المقدَّس ، إلا أنه كان نهايةً فى سوء الخُلق والبُخل ، رحمه الله وسامحه .

وهو شاعر تَقف على ترجمته فى سنة اثنتين وخمسين وستمائة .

حضرتُ عنده فى القاهرة مع جماعة من الأُدباء ، فأخرج لحمًا وخُبزة

---

(١) هو أبو بحر صفوان بن إدريس بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عيسى ابن إدريس التجيبى المرسى . روى عن ابن مضاء، وكان بينه وبين ابن بقى أبى القاسم مكاتبات .

وكان مولده سنة ٥٦١ هـ . وتوفى بمرسية سنة ٥٩٨هـ .

وله من الكتب: زاد المسافر ، وقد طبع أخيراً ؛ وكتاب: الرحلة ، وغيرهما . (انظر نفح الطيب) .

واحدة . ففَرغتْ فأَخرج أُخرى ، ثم فرغتْ فأَتى بأُخرى ، وقد تغيّر وجهه . فقلت له : يا أبا زكريا ، ما أَظنك إلا حافظاً لوُجوه النِّعم ، ما ترى أَن تستَذلّها بالنظر . فخَجِل واعتذر اعتذاراً باردًا ، ولم يَستدع أحدًا منّا بعد هذا .

الترجمة السادسة

[ابن جرج]

شيخ طلبة الخَضر ، العالم الجليل ، الفيلسوف الشاعر النبيل ، أبو جعفر أحمد بن عَتيق بن جُرج الذَّهبي البَلنسيّ . أصلُه من بنى جُرج ، البيت المشهور بقُرطبة[1] ، أنتقلوا بالفِتنة إلى بَلَنْسية. وكان فى آبائه من اشتغل بالتَّذهيب فجرى عليه ذلك الوصف ، وكُل من وقفتُ منه على ذِكْره ، فى كتاب أو مُشافهة ، عَظّمه غايةَ التعظيم ، وجعله أحقَّ أهل عصره بالتقديم . وأبو الوليد الشَّقُنْدى[2] ، مِن بينهم ، شديد الغلوّ فيه ، وهو أعلمُ الناس به لكثرة ملازمته إيّاه . سمعتُه مرة يقول : إنَّ الكمالَ الإنسانىَّ إنْ جُمع لإنسان فإنه لم يَعْدُ ثلاثةً : أرسطو ، وابنَ سينا ، وأبا جعفر الذَّهبي . وذكره فى رسالة شُعراء الأندلس الذين افتَخر بمحاسن شعرهم على شُعراء برِّ العُدْوة ، ونوّه فيها بقوله — وهو من المُرقِص الداخل فى كتاب « كنوز الأدب » — :

---

(١) وأصل هذه الأسرة من البيرة . ومنها أيضاً أبو جعفر عبد الله بن محمد ابن جرج الكاتب . المتوفى سنة ٥٧٥ هـ. (انظر المقتضب من تحفة القادم) .

(٢) هو أبو الوليد إسماعيل بن محمد . وشقندة ، المنسوب إليها (بفتح فضم فسكون) : قرية بعدوة نهر قرطبة مجاورة لها من جهة الجنوب .

قال ابن سعيد وهو ممن كان بينه وبين والدى صحبة . . . وانتفعت بمجالسته . وله رسالة فى تفضيل الأندلس يعارض بها أبا يحيى فى تفضيل بر العدوة . وولى قضاء بياسة ولورقة . مات بإشبيلية سنة ٦٢٩ هـ .

(انظر اختصار القدح . ونفح الطيب ٤ : ٢٠٨ — ٢١٠) .

[خفيف]

أيها الفاضل الذى قد هَدَانى نَحْوَ مَنْ قد حمدتُه باختيارى
شَكَرَ اللهُ ما أتيتَ وجازا كَ ولازلتَ نجمَ هَدْىٍ لسارى [١٩٥]
أىّ برق أفاد أى غَمَام وصَباح أدَّى لضوء نَهار
وإذا ما غدا النَّسيمُ دَليلِى لم يُخِلْنى إلّا على الأزهار

وأنت إذا بحثتَ جهدكَ فيما قاله المَشارقةُ والمَغاربة فى فاضلٍ دلَّ على صُحبة فاضل، لم تجد مثلَ هذه الأبيات.

قال: ومن الأبيات السائرة المُفردة للتَّمثيل قولُه فى عالِم انفصل عنه:

[خفيف]

ولكَمْ مجلسٍ لديك انفصلْنا عنه مثلَ الصَّبا عن الأزهارِ

وقولُه، وقد عاد أبا سعيد بن جامع[1] فى مَرضه:

[خفيف]

أنت عينُ الزَّمان لا تُنكِرِ السُّقْـ ـمَ فما ذاكَ مُنْكَرٌ فى العُيُونِ

---

(١) هو الوزير أبو سعيد عثمان بن عبد الله بن إبراهيم بن جامع. وزر لأبى عبد الله محمد بن يعقوب بعد أبى عبد الله محمد بن على الضرير. وكان إبراهيم جد أبى سعيد، من أصحاب ابن تومرت، صحبه من مراكش. وكان أصله من الأندلس، أباؤه من مدينة طليطلة. ونشأ إبراهيم بساحل مدينة شريش على البحر الأعظم بضيعة تسمى روطة ثم انتقل إلى بر العدوة فتعرف بابن تومرت.

واستمرت وزارة أبى سعيد هذا إلى أن توفى أمير المؤمنين أبو عبد الله، ووزر بعده لابنه أبى يعقوب حتى عزل فى سنة ٦١٧ هـ. (انظر المعجب).

وممن كان يبالغ فى وصفه من جهة العلم والمودَّة ، وحُسن الأخلاق وكمال الأوصاف ، أبو عِمْران الطَّرْيانى[1] قال : كنت إذا صعدتُ إلى الحَضرة أَلزمُ خِدمة جماعة من أرباب دولتها ، فوردتُها مرةً ، وحَضر مَوسمٌ ، فغيّروا عاداتهم ، فحملنى ذلك على أن قلت :

[سريع]

[196] غَيَّرْتمُ عاداتِكم عنـــدنا فكُلُّنا من عِبئه يَستريحْ
فغـــيّر الرحمنُ عاداتِه عندكمُ كى تُعْذَروا فى القَبيح

وبلغ ذلك أبا جعفر الذَّهبى ، فقام بجميع ما أحتاج إليه ، فقلت فيه :

[مجزوء الرجز]

أَبَيتَ إلّا كرمَا ذا ثَروة أو مُعْدِمَا
ترى الأيادى مَغْنَما إذا رأوها مَغْرَما
فزادك اللهُ عـــلى كُلِّ الأُمور نِعمَا

وصليتُ إلى جانبه صلاةَ العيد ، فلما التفتَ من السلام ورأى الناس يموجون فرحاً أطرق ، ثم أنشدنى : [سريع]

نُسَرُّ بالأعياد يا ويْحنا وكُلُّ عيدٍ قد تَوَلَّى بَعَلمْ
والعُمر دُرٌّ فى نِظامٍ وهلْ نَفرح أن يُنْقَضَ دُرُّ النِّظام

---

(١) هو أبو عمران موسى بن على ، ينسب إلى طريانة (بفتح فسكون) : المنارة التى أمام إشبيلية على الجانب الغربى .
قال ابن سعيد : وبلغنى أنه مات سنة تسع وثلاثين وستمائة . (انظر مختصر القدح . والمغرب) .

مافى البرايا عاقلٌ كُلُّهم يَرْدَى ولم يَعْمل حسابَ الفِطام
والحمدُ لله على ما قَضَى فهذه حِكْمته فى الأنام

ورأيت ابنَ حَمُّويه قد ذكره فى « رحلته المغربية » وأخبر أنه كان حسنَ الأخلاق جَمَّ المعارف . وسايرتهُ يوماً بظاهر مَرّاكش ، [204a] فتذاكرنا معايبَ الدُّنيا وأنكادها ، وأنها لا تُوجد فيها راحة غير مَشُوبة بتَعب أو سُوء عاقبة . فقال : عالَم النَّقص لا تكون فيه الكمالات .

وذَكر ابن عُمر[1] فى تاريخه أنه كان متفنّناً فى العلوم، مُحيطاً بكثير من الفلسفة ، وأنَّ وفاته كانت فى سنة إحدى وستمائة فى سَفْرته مع الناصر[2] إلى إفريقية . وكان ممن طُلب عند محنة أبى الوليد[3] بن رُشد، فى مدة المنصور من أهل الفلسفة، فلم يُوجد ، فبلغه أنه فى خدمة السيد أبى الحسَن علىّ بن أبى حفص بن عبد المؤمن[4] بغَرناطة، فكتب له فى أن

(١) لعله يريد ابن حموية صدر الدين محمد بن عمر . وقد مر التعريف به فى الحاشية (رقم ١ ص ٢٩) .

(٢) هو محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، الناصر لدين الله ، من خلفاء الموحدين . وقد مر التعريف به فى الحاشية (رقم ١ ص ٣٣) .

(٣) هو محمد بن أحمد بن رشد الأندلسى أبو الوليد الفيلسوف . من أهل قرطبة . اتهمه خصومه بالزندقة والإلحاد فأوغروا عليه صدر المنصور ، فنفاه إلى مراكش وأحرق كتبه ، ثم رضى عنه وأذن له بالعودة ، فعاجلته منيته وتوفى بمراكش سنة ٥٩٥ هـ . ثم نقلت جثته إلى قرطبة .

(٤) سيترجم له المؤلف (ص ١٤٩) .

يَجمع له جمعاً ويُوقف بينهم حتى يَلعنوه . فلما وصله الكتاب وقفَ عليه أبا جعفر فى خَلوة . فقال أبو جعفر : ألا لعنة الله على الظالمين ! فضَحك السيد وقال : عجلتَ بالمكافأة يا أبا جعفر ، وبدأتنا بما أستحيينا أن نبدأك به ، وبالله لقد يشُق علىّ مقابلتُك بما أُنفذ به الأمرَ ، لكن ليس
[20 b] / من ذلك بُدّ ، وقد رأيت أن يكون على خَلوة . فجمع خواصّه ولعنوه بمكانه . فجعل يقول : (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّاب) . وتلطَّف السيّدُ فى أمره والجواب عن مسألته .

ثم إنه بلغ بعد ذلك الغاية القُصوى بالحَضرة حتى قُدِّم على طلبة الحَضر ، فصار من أخصّ الجلساء وأرفعهم منزلة عند المنصور ، ثم عند الناصر .

وفيما كتبه والدى من أخباره : أنه كان فى أول أمره مُشتغلاً بالعلم بيَلَنْسية ، إلى أن شُهر بها مكانُه ، وجلّ قَدره فى الإقراء والإفادة . فاُستدعاه المنصور إلى الحضرة فقال :

[مجزوء المديد]

كُنتُ فى رُكْنٍ من الأر ... ضِ على مِقدار فَهْمِ
مُفرداً فيه مُخَلًّى ... فارغًا من كُل خَصْم
فدعَوْا بى ثم قالوا ... عَلَمٌ فى كُل عِلْم
عَرَّضُونى للبَلايا ... أَتلقَّى كُلَّ سَهْم

يالَقومى أَتْعبوا فى قَصْدهم رُوحى وجِسْمى

وقال : كان لى أخ أَمِيلُ إليه ، فأردتُ أن أُنبهه لحُضور مجلس أبى جعفر النَّهبى مع ما يستفيد منه . فقال لى أبو جعفر : لا تَتعب فى هذا الأخ الذى لك ، فوالله لا أفلح أبدًا . فقلت : ولم ؟ قال : لأنه ليست عليه طَلعة أديب ، ولا له التفاتُ أريب ؛ ولا عنده إصغاء مُسترشد ، ولا لديه تلطُّف مستخبر . قال : فقطعتُه عنه ، وتركته لشأنه . فما طلع فى إخوتى أقلّ فلاحًا منه .

الترجمة السابعة

[ابن الياسمين]

الجليس[1] المتفنّن الكاتب أبو محمد بن الياسمين عبد الله بن حجّاج الإشبيلي . نُسب إلى أُمه ، وكانت سوداء ، وكان هو أيضاً أسود . تخرّج بإشبيلية فى فُنون العلم . وكان أول تعلُّقه بالفقه والتَّوثيق ،[2] حتى صار من أعلام العارفين بالوثيقة ، ثم اشتغل بالنَّظم والنثر وفنون الآداب، فصار من أعلام الأُدباء والكتّاب . /[21 b]

ومن حكاياته أنه جاء بإشبيلية إلى شَيخ طبيب،فشكا له تلهُّب مَعدته، وأنه لا يُشبعه شيء . فقال ، وقد لمَح عليه بوارقَ السعادة : لا بُدَّ لك من أن تَشتكى لى بسُوء هَضم مَعدتك ، نَعم وبثانية ، نَعم وبثالثة . فمضت الأيام وطلع إلى مَرّاكش، وبلغَ المبلغَ العظيم من مُجالسة المنصور ومُسايرته له إذا ركَب فى أسفاره ، لافتنانه بحديثه وما يجد عنده ممَّا لا يجده عند غيره . فاتفق أن طلع ذلك الطبيبُ إلى مَرّاكش فاجتمع به، فقال له : يا حكيم ، صدقتَ فيما أنذرتنى به من سُوء الهضم مما تراه . فدلّه على ما يصنع . ثم مضت الأيام فشكا له بالنِّقْرس وقال : أظن هذه الثانية ؟ قال : نعم . ثم أقام مدة ، ووقع اجتماعه به ، فقال له : يا حكيم ، صدقت فى اثنتين فأين الثالثة ؟ فقال : يا فقيه، بَلَغَتْنى على ألسن الناس،

---

(١) وانظر : زاد المسافر لصفوان بن إدريس .

(٢) التوثيق : تهيئة الوثائق وإعدادها .

ولو كانت علّة لشكوتَ بها . فضحك أبو محمد . وكان كثير الإجمال والمُطايبة والمَرح ، وأحسن للطبيب . وكان قبل ذلك لم يُفَض عليه [22a] فى دنياه بشىء . وإنما أشار الطبيب إلى الخَلّة التى اشتهرت عن ابن الياسمين . والله أعلم بالسرائر[1] .

وذكر ابن عُمر فى تاريخه أن وفاته كانت فى سنة إحدى وستمائة . ولم يُوقف له على حقيقة . وقد وُجد مَذْبوحاً فى غُرفة على باب داره .

ومما تلقيتُه من جماعة من طلبة مَرَّاكش أنه وُجد فى تلك الغرفة على وجهه ووَتدٍ فى دُبره .

وكذلك وُجدالفَتح[2] صاحب القلائد ، فى تلك الجهة بعينها ، ما بين دار ابن الياسمين والفُندق الذى ذُبح فيه ابن الياسمين، إلا مسافة يسيرة .

وحكى أبو عِمران الطَّرْيانى قال : كنت فى اليوم الذى أصبح فيه ابن الياسمين مذبوحاً عند الكاتب أبى الحسن بن عَيَّاش[3] ، فبينا أنا

---

(١) سيشير المؤلف إلى هذا فى الأسطر الآتية .

(٢) هو أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان بن عبد الله القيسى الإشبيلى . توفى قتيلاً سنة خمس وثلاثين وخمسمائة بمدينة مراكش فى الفندق . وله : قلائدالعقيان ،ومطمح الأنفس(انظر المطرب. ووفيات الأعيان) .

(٣) هو أبو الحسن على بن عياش بن عبد الله بن عياش . كان من كتاب أبى عبد الله محمد بن أبى يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على. قال عبد الواحد المراكشى فى المعجب : « ثم اتصلت بى وفاة هذين الكاتبين — يعنى أبا الحسن هذا وأبا عبد الله بن عياش — وأنا بالديار المصرية فى أشهر سنة ٦١٩ هـ » . (انظر المعجب ص ٣١١ ، ٣٢٥) .

ألاعبه بالشَّطرنج إذ دخلتْ إليه أَمةٌ له وألقت إليه براءةً عرّفته أن امرأة دفعتها إليها ، ورَغبت منها أن تُوصلها إلى سيّدها .

فقال : هذا وقتُه ! ولم يلتفت إليها . قال : فقلت له : ولعلّ فيها مالاً يَجب تأخيرُه . قال : ولعلّ . ثم أخذها وقرأها ، فإذا بوجهه قد تغيّر ، ثم ضَحك ورَمى بها إليّ وقال: انظرْ هذا الذى لا يحب تأخيرُه . فقرأتُها ، فإذا فيهـا :

[كامل]

هـذا ابنُ حَجَّاج تَفاقم أمرُه ... وجَرى وجَرّ لحدّ غايته[1] الرَّسَنْ

حتى غـدا مُلْقًى ذَبيحاً حاكياً ... للناس رِقْدتَه إذا هَجر الوَسَن

فَلْيحزُن الـكُتّابَ ما قد غاله ... وأَخُصّ بينهم الفقيدَ أبا الحَسن

فقلت : ومن تُرى قائل هذه الأبيات لعنه الله ؟ قال : يا سُبحان الله! وهل صاحبها غير الـكورائى[2] الذى طَبعه الله على أَلّا يُضَيِّع فرصة من فُرص الأَذاة .

قال أبو عمران : ثم اشتهر بعد ذلك قولُ الـكورائى فى تلك القضية معرِّضاً بابن عيَّاش :

[كامل]

فَلْيَحْزُن الـكُتّابَ ما قد غالَه ... وأَخُصّ من بين الجميع فلانَا

---

(١) الرسن : الحبل . يصفه باسترساله فى غيه ، شأن الفرس يطلق له الحبل.

(٢) هو أبو العباس أحمد بن عبد السلام الكورائى . وستأتى ترجمته بعد فى هذا الكتاب (ص ٨٨) .

فحصل التحقيق بأنه قائل ما تقدّم .

قال أبو عمران : فلم يكن ابنُ الياسمين، على ما كان له من مَنصب العلم / والتقدُّم عند السلطان ، يستتر بحاله ، بل يتمازح فيه ولا يُضيِّع [23 a] بادرةً تقع من أجله . وله فى ذلك أشعار كثيرة ، منها قولُه ، وقد عَذله بعضُ أصحابه فى تقريب أمرئٍ كان كثيرَ الاختصاص به ، وقال له : هلاّ اخترتَ لخِدْمتك ، والقُرب من مُناولتك ومُشافهتك ، أبيضَ اللون :

[طويل]

يَعيبون حُبّى للسَّواد جَهالةً وما عَلِموا ما فيه لى مِن مآرِبِ
أُهين لقَصْدى رَبَّه وهو خادم إذا ما عَلا فَوْقى بِمِجْداف قارِب
ويُلْقَى ضَحوكَ السِّنِّ لله دَرُّه حَمُولًا لما حَمَّلتُه غيرَ لاغِب
وفيه خِصال جَمَّةٌ غيرُ هـذه أَحقُّ الورى طُرًّا بخدْمة كاتب
فيامَعْشرَ الكُتَّاب أُوصيكمُ به وصيَّةَ من يُعْنَى بحاجة صاحب

قال : وربما كان يصرّح فى بعض خَلَواته لمن يأخذ معه فى ذلك الشأن ، إذا دارت كأس المُدام ، وارتفع حجاب الحياء عن الكلام ، فيقول : ينبغى لأرباب هذه الصناعة ألّا يَعْدلوا عن الأمرد ، فإنه أطول أيرًا، وأكثر سيرًا .

/ ومن أشعاره المُتعارَفة بهذا الباب قولُه فى صبىّ مَليح جاء يقرأ [23 b] عليه ، بعد ما حام على قُربه زماناً ، فلم يقدر على ذلك :

[مخلع البسيط]

لله ذاك المَليحُ لمّـا أتى بأَسْفاره إلينـا
كم قـد غدا حائماً إلى أنْ أوقعه البَخْتُ فى يَدَيْنا
فظنَّ جهلًا أَنَّا عليـــه وما دَرَى أنه علينـــا

قال : وبينما هو فى جامع إشبيلية إذ مرَّ به صبيٌّ فى نهاية الحُسن . فأَنشده مُسمِعاً له :

[مخلع البسيط]

ما ضَرَّ مَن سار وما سَلَّما لو أَنه من لَحَظْه سَلَّما

فأظهر النِّفارَ من ذلك،فقال : لا تَخفْ ، إنك أنت الأعلى . ففَطن لمُراده . فقال : لستُ ممن يَركب بأُجرة ولا سُخرة . فلم يُحِر جواباً. وبقى مُتعجباً من فِطنته ومن مُخاطبته،وبَحث عنه فإذا هو من بنى زُهْر .

ولما اشتهر قولُ أبى العبّاس الكورانى فيه :

[بسيط]

إسْتُ الحُبارَى ورأْسُ النَّسر بينهما لونُ الغُراب وأَنفاسٌ من الجُعَلِ
[24 a] خُذْها إليك بحُكم الوَزْن أَربعةً كالنّعت والعَطْف والتّوكيد والبَدَل

حمله ذلك على أن قال :

[بسيط]

يا أَعرقَ الناس فى نَسْل اليهود ومَنْ تأبَى شمائلُه التَّفْصِيلَ للجُمَلِ
خُذْها بحُكم اجتماع الذَّم واحدةً تُغنى عن النّعت والتوكيد والبَدَلِ

وله موشّحات يُغنَّى بها ، وأمداح فى المنصور والناصر . وأَمثلُ ما وقع لِيَدى من ذلك قولُه من قصيدة منصوريّة يذكر فيها قَطْع المنصور الاشتغال بكتب الفُروع والاقتصار على ما ثبت من الأحاديث النبوية :

[متقارب]

أَسيِّدَنا قد وردتُمْ بنا ... مَوارِدَ كنّا عليها نَحُومْ
نَبذتُم مقالةَ هذا وذا ... فزال المِراء وقَلَّ الخُصوم
وأَثبْتُمُ قولَ مَن لَفْظُه ... هو الشَّرْع والحقُّ منه يقوم
فلا زِلْتمُ لكمال الهُدَى ... وإحْياء دارِسِ دَرْسِ العُلُوم

وقوله من قصيدة ناصريَّة : [وافر]

عجبتُ لمن يراك وبعد هذا ... يُحاول أن يرى مَلِكاً سِوَاكا
/ وقد جَمع الإلٰهُ لديك ماقَدْ ... تَفرَّق فى البريَّة من حُلَاكا [245]
وما أحدٌ يؤُمّ ذَراك يومًا ... فيختار الترحُّلَ عن ذَرَاكا
فسبحان الذى أعطاك مُلْكاً ... على مقدار ما أَعْلَى عُلَاكا

وحضرتُ[1] يومًا بحضرة تُونس عند الوزير أبى العَلاء[2] فنظر

---

(١) ضمير المتكلم هنا يرجع إلى ابن سعيد مؤلف هذا الكتاب . وكانت بينه وبين أبى العلاء صلة . وانظر الحاشية الآتية .

(٢) هو أبو العلاء إدريس بن على بن أبى العلاء بن جامع . كان يكتب له ابن سعيد ، ثم مات فرثاه بقصيدته التى مطلعها :

بكت لك حتى الحاطلات السواكب ... وشقت جيوبا فيك حتى السحائب

(انظر نفح الطيب ٣ : ٤٤ ، ٤٧) .

زَهر نارنج تفتّح فى أشجاره بين يديه ، فقال : هل يحضُرك فيه شىء من محفوظاتك على أن يكون مما يَهُزّ سامعَه ؟ فقلت : أمَّا على هذا الشرط فلا . فقال : قُل أنت فيه. فقلت : امتثالا لأمركم لا على شَرطكم . ثم أنشدتُه :

بَدَا لك النَّارَنْجُ وهْو كأنما ... يُريك على الأجْياد دُرًّا مُنَضَّدَا
وإن خِلْتَه بين الزَّبرْجد فِضَّةً ... فعمَّا قريبٍ سوف تلقاه عَسْجَدَا
على مثله حَثَّ النديمُ شَمُولَه ... ونظَّم منْ شَمْل المُنَى ما تبدَّدا

فأَطْنب فى الاستحسان ، وأقام السرور بواحد ثم ثان .

[254] /وقال : خرج ابنُ الياسمين إلى بعض بِحَار[1] مَرّاكش فنظر إلى مثل هذا المنظر ، واستحثّ على وصفه مَن كان معه من أهل الشعر والأدب . فقال كلُّ واحد منهم على ما أعطاه فكرُه ووقتُه . فلم يُحفظ من كل ذلك إلَّا قول ابن الياسمين : [مجتث]

جاء الربيعُ وهذى ... أُولَى البشائر منهُ
كأنَّما هو ثَغر ... قد جاء يَضحك عَنه
زَهرٌ لنارنجِ دَوْحٍ ... أنظُر إليه وصُنْه
أليس حيَّاك عَرْفُ الـ ... ـذى جَفا مَن لَدُنه

وهذا مما أوردتُه فى كتاب «الكُنوز»، إذ إهمال مثله منه لا يجوز. وها أنا أختم ترجمته ، بما تعرف به فى الشعر قيمتَه .

(١) البحار : جمع بحرة ، بالفتح ، وهى الروضة .

نقلت من مُعجم أبى الوليد الشَّقُنْدِىّ أنّ أبا الحجّاج بن نَمرىّ،[1] عالم فاس، لمّا استُحسنت بالحضرة مُذاكرته، أُحسن إليه وخُلع عليه، وحَضر مع ابن الياسمين فاستقبح صورته واستحسن كلامه، فقال فيه :

[مجزوء المديد]

[25 b] /أَيُّها اللابسُ لَوْنَ الـــلَّيْل ثَوبًا حين أَظلمْ
والذى يُضمر داءً منه يَوْمًا ما تألَّم
أنت من أَقبح خَلْق الـــلـه ما لم تتكلَّم
بشُـذُور باهراتٍ ساحراتٍ لو تُجَسَّم
أَصبحتْ فى كُل جِيدٍ حَسَنٍ عِقدًا مُنظَّم

فلما بلغ ابن الياسمين ذلك قال :

[مجزوء المديد]

أَيها الفاسِى أَتَى رِيـ حُك قَبْل النَّجْو يَفْغم
فى قَريضٍ حَسن الصُّو رة بالهَجْو مُجذَّم
فَقَبِلْناهُ وقـد جا ءَ لنا بالمَدْح مُعْـــلَم

---

(١) هو أبو الحجاج يوسف بن عبد الصمد بن يوسف بن على بن عبد الرحمن بن محمد بن نمرى . أخذ عن القاضى أبى جعفر بن مضاء . كان له صيت بالمغرب وبمراكش وبإشبيلية، إذ كان إقراؤه بها فى دخوله الأندلس . ثم عاد إلى بلده عام ثلاثة عشر، وقعد للإقراء فى شرقى جامع القرويين إلى أن توفى فى الثانى من شهر رجب سنة ٦١٤ هـ . وكان مولده سنة ٥٥٤ هـ (عن جذوة الاقتباس ٣٤٥) .

ثم قُلنـــا : بمزاحٍ منك قَوْل ليس يُعْدَم
إنما الشأنُ فقيهٌ عالمٌ ليس يُعَلَّم
لا تُراه الدهرَ إلّا بغَريم الكأس مُغْرم
يرفُض النَّفْل مع الفَرْ ض أوان الزِّير[1] والْبَمّ
وإذا صـــلّى رياءً كان فيها مثلَ أَبْكم
فى ثيابٍ كربيعٍ قد سَرى فيها المُحرَّم
/ ذا جوابى وهو ظُلْم لك والبادئُ أَظْلم [26 a]

قال الشَّقُنْدِىّ : هذان الشِّعران بمنزلة الشِّعْرَيْن ، وكلاهما عَيْن فى مقابلة عَيْن .

وقد أوردتُهما فى كتاب « كنوز المعانى » ، لأنهما مما ظَفرتُ به من الأمانى .

---

(١) الزير : من الأوتار الدقاق . والبم : الوتر الغليظ .

الترجمة الثامنة

[ابن مسعود]

الفقيه المدرس الشاعر الظريف أبو العبَّاس أحمد بن مَسْعود [بن محمد][1] الخَزْرجيّ القُرطبيّ .

جليل المقدار ، جائل فى الأقطار ؛ رَحل من بلده قُرطبة فدوَّخ أقطار المغرب والمشرق ، إلى أن استقر بمدينة دُنَيْسِر[2] فطلع بها كالمصباح المُشرق، واعتنى به ملوك ماردين ودُنَيْسر بنو أُرْتُق ؛ وجعلوه مدرساً فى أَجلّ مدرسة لهم هنالك . وقد ذكروا أنه كان فى فنون العلوم بمنزلةٍ كذلك ، وكان جُلّ علومه الأصول والفقه الشافعى .

وقفت على ترجمته فى تاريخ دُنَيْسِر[3] لعمر بن الخضرِ التُّركى / [26b] وفى تاريخ حلب لابن العديم ، وفى معجم ابن الشَّعار[4] . وكلهم أطنب فى الثناء عليه ، وترجم عمَّا لديه .

وفى أثناء تلك التواريخ أنه مات بدُنيسر فى سنة إحدى وستمائة . ولما مررت بمدينتى دُنيسِر وماردين فى الرِّحلة البغدادية وجدت أدباءها

---

(١) تكملة من نفح الطيب (٣ : ٣٧) .

(٢) انظر الحاشية (رقم ٢ ص ١٠) من هذا الكتاب .

(٣) ذكره حاجى خليفة وقال : « تاريخ دينسر لعمر بن اللمش » .

(٤) ابن الشعار ، هو أبو البركات مبارك بن أبى بكر بن الشعار الموصلى المتوفى سنة ٦٥٤ هـ . ومعجمه هذا هو ذيل على معجم الشعراء للمرزبانى أبى عبيد الله محمد بن عمران ابن موسى . وسماه « تحفة الوزراء المذيل على معجم الشعراء » . وقد فرغ من تأليفه سنة ٦٣١ هـ . (انظر كشف الظنون) .

يرتاحون إلى أخباره ، ويهيمون بحفظ ماوقع إليهم من أشعاره ،فأضفتُ ما استفدتُ منهم إلى ما وقعت عليه فى التواريخ المتقدّمة الذّكر ، ولخصّت من الجميع ما اخترته لهذا المكان .

أخبروا أنه كان مع جلالة قدره وتصدّره للتدريس من أولع الناس بحضُور السّماع ، وأكثرهم قولًا فى الغراميّات التى لاتخلو من الانطباع . وقد أوردتُ له ممّا وقع ليدى من ذلك ما يدُلّك على رقّة حاشيته ، وحلاوة منطقه وتمكن قافيته ، كقوله :

[مجزوء الخفيف]

ثار شوقى إلى الحِمَى وهَوَى الخُرَّد الدُّمَى
وتذكّرى ما خَلا مِنْ نَعيمٍ تَصرَّما [27a]
طِيب عَيْش فَقَدْتُ مَعْناه إلّا تَوهُما
فَهَفتْ مُهجتى جَوًى وبَكتْ مُقلتى دَمَا
آهِ من حُمرة الخدو د ومن حُوَّةِ[1] اللَّمَى
وقِوَامٍ تخالُه سَمْهريًّا مُقَوَّمَا
ناعمٍ لم أَزلْ به فى حَياتى مُنَعَّما
وعِذارٍ كأنما مَدَّ فى الخدِّ أَرْقَما
أيُّها المُبتلَى به عِشْ كئيباً مُتيَّما
والذى جاء لاحياً فيه صار مُغْرَما

(١) الحوة : سواد إلى خضرة . واللمى : سمرة الشفة .

قُل له دَعْ سَلِيمَهُ وانجُ عنـــه مُسلَّما[1]

وقوله : [خفيف]

مِلْتَ عنّى لِمَا حكاه العَذولُ أىُّ غُصنٍ مع الصَّبا لا يَميلُ
كُلَّ حينٍ تُصغى لما قال هلَّا بعضَ حينٍ تُصغى إلى ما أقول
هو حظِّى أموتُ وَجْدًا وشوقًا وحَبيبى بِمُبْغِضى مَشْغول
أنا عبدٌ وكُلُّ ما شئتَ تُعْطَى فالتَّجنِّى والعَتْبُ لِمْ ذا يَطُول
رُضْتَ فيه نفسًا عزيزًا عليها ذُلُّها والمُحِبُّ عانٍ ذَليل [7b]
ويقول النَّصيحُ أَرْسلْ إليه بخُضوع لعلّ حالاً تَحُول
أنا أرسلتُ للحَبيب ولـكنْ ليتَ شِعرى بما يَعودُ الرَّسول

وقوله : [سريع]

الحمـــدُ لله على ساعةٍ عاينتَ فيها البدرَ فى سَعْدِهِ
مُبـــارَكَ الطَّلعة مَيْمونَها تَقرأ آى النُّضْج فى خَدِّه
قَدَّمنى من أُفْقه بعـــدما قاسيتُ ما قاسيتُ فى بُعْدِه
لم يَجهل الحُبَّ ولا عابَه فجاد بالوَصْل على عَبْده
وعاهدتْ أجفانُه صُحْبتى وكُلُّنا باقٍ على عَهْده
أَسرُّ أيامِىَ يومٌ أُرى مُرتقيًا فيه إلى وَعْـده

---

(١) سليمه ، أى المعضوض بحبه .

وعَهْدِى بالجَلال بن الصَّفار الدُّنَيْسِرى[1] يرتاح إذا أنشد قوله :

[وافر]

وفى الوَجَنات ما فى الرَّوْض لكنْ ... لرائق زَهْرها معنًى عَجِيبُ
وأعجبُ ما التَّعجُّبُ منه أنِّى ... أرى البُستانَ يَحمله قَضيب

وأنشدنى قوله :

[بسيط]

[284] /لامُواعلى صَبْوتى والشَّيبُ مُبْتسمٌ ... كالزَّهر يُبدى ابتهاجاً فى خَمائلِهِ
فقلتُ والوجدُ يَطوينى وَيَنْشُرنى ... أَواخرُ اليوم أحلى من أوائله
لم أترك الأُنسَ حيناً من أَحاينه ... فكيف أَغفُل عنه فى أَصائله

فلم أُبْدِ له ما يَعهده من الاُرتياح إذا أغرب علىَّ بمعنى . فسأَل عن سبب ذلك . فقلت له : لأنى قلت ، ولم أسمعه :

[وافر]

وقائلةٍ أراكَ على التَّصابى ... وغُصن العُمْر دَبَّ به الذُّبولُ
وهذا الشيبُ أنجمُه أنارت ... وطالَعها لصاحبها أفول
فقلتُ لها ودمعُ العَيْن منِّى ... على تلك النُّجوم له مَسِيل
أَصِيلُ العُمر أتركه ضَيَاعاً ... إذ الأَوقات أطيبُها الأصيل

---

(١) هو جلال الدين المارديني على بن يوسف بن شيبان ، المعروف بابن الصفار . ولد بماردين سنة ٥٧٥ هـ . ومات مقتولاً ، قتله التتار لما دخلوا ماردين سنة ٦٥٨ هـ . خدم بكتابة الإنشاء لأرتق صاحب ماردين . وكان شاعراً مجيداً . وصنف كتاباً يحتوى على آداب كثيرة سماه كتاب « أنس الملوك » . (انظر المنهل الصافى . وفوات الوفيات . والنجوم الزاهرة) .

فمدَّ يده إلى الدواة وكتبها .

وأنشد له الصاحبُ كمال الدين بنُ العديم قصيدةً ، منها فى الغَزل :

[كامل]

وَقَعَ المَلامُ مواقعَ الأشـواقِ فأصاب فيك مَقاتلَ العُشَّاقِ

ومنها فى مَدح ابن أُرْتُق صاحب ماردين :

/ما جاد يوماً أن يُقال هو الجوا دُ ولا توقَّف خَشْيةَ الإملاقِ [39b

لـكنَّه يُعْطِي ويَمنع عالماً بمواقع الإمْسـاك والإطلاق

وأنشد له ابنُ الشعَّار فى مُعجمه :

[كامل]

يا ظَبْيَ سِنْجار[1] أما تَرْثى لمن قدصار مِن أجلك فى كَفِّ الأجَلْ

قد كان مَشْغولاً بدارس عِلْمه فاليومَ لا عِلْمٌ بَقِى ولا عَمَل

ومن أبياته المفردة التى يُتمثل بها :

[طويل]

وما عَجَبى إلا لذى الجَهْل إنه يُؤَمِّل فى الأعداء رأْىَ الأصادِقِ

---

(١) سنجار : مدينة من نواحى الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام .

تراجم ســـنة اثنتين وستمائة

ثلاث :

١ — من الجزيرة الموصلية : الفيلسوف المُتفنِّن الشاعر الموفق التَّلَعْفَرِيّ .

٢ — ومن مصر : الشاعر الأديب المصّنف راجى بن عطاء الله .

٣ — ومن الأندلس : الأستاذ النحوى الأديب الظريف أبوالحسن هُذيل الإشبيلى .

الترجمة الأولى

[التلعفرى]

الفيلسوف / المتفنِّن الشاعر ، المُوفَّق التَّلَعْفَرى مُظَفَّر بن محمد . من [29a]
تَلَعْفَر[1] من حُصون سِنْجار . وكان الفَضل التِّيفاشى[2] يَذكر لى هذا الرجلَ ويزعُم أنه أستفاد من تصانيفه فى ضُروب الفلسفة ، ويُعتنى بما وقع له من أخباره وأشعاره أيامَ صُحبته رؤساء بنى ندا ، أعيان الجزيرة العُمريّة[3] .

ثم لما صِرْتُ إلى سِنْجار ومررت بتَلَعْفَر وحللتُ بالموصل وجدتُ ذكره هنالك نابهاً ، وأَلْفيت كلَّ مَن يذكره من أهل بلاده بأُنتسابه تائهاً . وقد لخّصت ما تلقيتُه من ذلك :

رحل فى أوّل أَمره من بلده إلى الموصل وبغداد ، وقرأ فيها مُدة ، ثم عاد إلى تَلَعْفَر وأستقرّ بسِنْجار عند أصحابها بنى مَوْدود ، وحَلّ

---

(١) هى تل أعفر — قال ياقوت : هكذا تقول عامة الناس ، وأما خواصهم فيقولون : تل يعفر . وقيل : إنما أصله : التل الأعفر — : قلعة وربض بين سنجار والموصل فى وسط واد فيه نهر جار . (انظر معجم البلدان) .

(٢) هو أحمد بن يوسف . وتيفاش ، التى ينسب إليها : مدينة أزلية بإفريقية . وتسمى بتيفاش الظالمة . ذات عيون ومزارع ، وهى فى سفح جبل . (انظر معجم البلدان) . توفى سنة ٦٥١هـ . وله كتاب أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار .

(٣) يريد جزيرة ابن عمر ، وهى بلدة فوق الموصل بينهما ثلاثة أيام ، يحيط بها دجلة إلا من ناحية واحدة شبه الهلال . (انظر معجم البلدان) .

[29b] منهم محل مَرِّ الخمر فى العُنقود ، وأُختص من بينهم / بقُطب الدين ،[1] وتصدّر لإقراء النَّحو والحكمة وضُروب الآداب . وكان معظم عُلومه الفلسفة ، وأُشتهر بالتَّنجيم وقولِ الشعر والأدب .

فمن المُتداول أَنه وَضع لقُطب الدين فى بعض السنين تَقْويماً وكتب عليه من شعره :

[متقارب]

تَضمَّن حُسبانَ مَجرى النُّجومِ وباح لديك بسِرِّ الفَلَكْ
فما كان شَرًّا فللحاسدينَ وما كان خيرًا وبُشْرى فَلَكْ

وله فى قُطب الدّين وغيره من مُلوك بيته أمداحٌ جليلة ، منها قولهُ الذى يُرتاح إليه ، وتُعتقد الخَناصر عليه :

[بسيط]

غُرٌّ بهَاليلُ ساسُوا الدّهرَ واقتدرُوا عليه من حيثُ ظِلُّ العَدْل مَمْدودُ
ماجَ الوَرَى مَعهم فى نِعمةٍ رَحُبتْ أَفياؤها وسَقَى أفنانَهـا الجُود
فبعضُهم راتِع فى حالِ غَفْلته وبعضُهم بين ذاك الدَّوْح غِرِّيد
لا يَظهر العيدُ فى أقطارهم أبدًا إذ كُل أيامهم من حُسنها عيد
المَدْحُ عندهُمُ قُرْبَى وقَصْدُهُم يدٌ لديهم وأُفْق الجُود مَقْصود

---

(١) هو قطب الدين مودود بن زنكى بن آق سنقر صاحب الموصل ، وأخو السلطان الملك العادل نور الدين محمود . كانت وفاته سنة ٥٦٥ هـ . (انظر النجوم الزاهرة ٥ : ٣٨٣) .

/ ما أَحْسَنوا أبدًا بَدْءًا إلى أَحد إلاّ وقالت لهم أَحسابُهم عُودُوا [30a]
وقُطْبهم قُطْبهم فى كل مَكْرُمةٍ على عُلَاه أُستدار العِتْرةُ الصِّيد

ثم اختلّت أحواله بسِنْجار، فرَحل فى نهاية من الإسراع والهرب إلى الملك الأشرف[1] بحرّان،[2] فعندما أجتمع به ، قال له : ما أَخرجك عن سِنْجار ؟ فقال : صاحبُها الذى جار . قال : فما هذا السَّوْق ؟ قال : على قدر المحبة والشَّوق .

وقال فى تغيُّر صاحب سِنجار عليه ، مالا يُستغنى فى هذا الباب عنه ، ولا يُتمثّل فى معناه بأحسن منه :

---

(١) الأشرف ، هو موسى الأشرف بن محمد العادل بن أيوب . كان أول ما ملك مدينة الرها، ثم أضيفت إليه حران . ثم ملك نصيبين سنة ٦٠٦ هـ . وأخذ سنجار والخابور سنة ٦٠٧ . وكانت وفاته بدمشق سنة ٦٣٥ هـ . (انظر وفيات الأعيان) .

ونحب أن نشير إلى أن هناك من الملوك من يسمى الأشرف ، وهو الأشرف موسى شاه أرمن بن العادل محمود بن عماد الدين زنكى ، ابن أخى قطب الدين مودود ، وأنه مع كل من الأشرفين عاش شاعران ينسب كل منهما إلى تلعفر ، أحدهما رجلنا المترجم له هنا ، والذى كانت وفاته سنة ٦٠٢ ، كما ذكر المؤلف . والثانى أبو المكارم شهاب الدين محمد بن يوسف بن مسعود بن بركة الشيبانى التلعفرى أيضاً . ولد بالموصل سنة ٥٩٣ هـ . وصحب الأشرف موسى شاه أرمن . وكانت وفاته سنة ٦٧٥ هـ . (انظر النجوم الزاهرة . وفوات الوفيات) .

(٢) حران : قصبة ديار مضر ، بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان . وهى على طريق الموصل والشام والروم . لابن النبيه الشاعر المصرى فيها شعر قاله للأشرف بن العادل بن أيوب ، وقد مرا بها فى يوم شديد الحرارة . (انظر معجم البلدان) .

[بسيط]

أيا لِمُزٍّ صُحبةَ السلطان إنّ لها ... صَفوًا يَرُوق ولكنْ غِبّه كَدَرُ
مُماثلى لا أزال الدّهْرَ ذا حَذَرٍ ... منه وليس متى ما شاء يَقْتدر
فكيف مَن ينقُد الأجيالَ قاطبةً ... مُستصغرًا وإذا يَجْفو جَفا البَشر
وكلما شاء حُكْمًا فيك أنْفذه ... متى يشاء ومنه ليس تَنْتَصر
إنّ الملوك متى تَسْتَقْرِ نارَهُمُ ... يَحْرِقْك قبل ٱبتغاء للقِرَى الشَّرَر

وحَضر يومًا فى بُستان عند الملك الأشرف ، فخدمه مَملوك له جَميل الصورة ، فقال له الملك : يا مُوفَّق ، هل تُوفَّق / لشىء من النَّظم فى [30b] هذا الذى جَمع لك بين الحُسن والإحسان ؟ فقال : يا سلطان ، ما أضيعَ هُبوب النسيم على الروض الهَشيم ، ثم أفكر ساعةً وقال :

[وافر]

أقول له وقد أبصرتُ مَرْأَى ... يُحاكِى غُرّةَ القَمر المُنيرِ
وأخلاقًا كما مُزِجت شَمُولٌ ... تُدارُ عليك بالعَذْب النَّمير
ولى حالٌ يُنافرها التَّصابى ... وقد حالت بإلْمام النَّذير
لقد أبديتَ لى حُسنًا وحُسْنى ... ولكن جِئْتَ فى الزَّمن الأخير

فقال : والله لقد جاوزت حدَّ الإحسان ! فلله دَرُّك ! وبالله لا كتبتُه إلا بيدى . وٱستدعى الدواة وكتبها فى دفتر ٱختياراته .

وقدم على سِنْجار رجلٌ كثيرُ الدَّعاوى والتَّثقيل يُعرف بٱبن الجِغانىّ[1]

---

(١) نسبه إلى «جغانة» و « جغانة » آلة موسقية ذات ثلاثة أوتار ، ذكرها دوزى فى تكملة المعجمات . (وانظر ابن خلكان ٧ : ٣٧ طبعة Wustenfeld).

القُطْرَبُلّى[1]، ويكتب عن نفسه: علىّ بن طاهر العلوىّ. وكان أبوه، على زَعمهم، يضرب الجِفانة، وهى من آلات الطَّرب. ثم نشأ هـذا الشخص فتعلَّق بالأدباء والأعيان، وأَخذ من كلامهم وأصطلاحهم ما يدخل به بين. . .[2] / وسافر إلى الحجاز، فثار فى خاطره أَن يَدَّعى [31 a] الشَّرف، فَرَحل إلى الموصل وتزيّا بزىّ الشُّرفاء وأَرخى ذوائب شَعره على جانبَىْ وجهه. فضَربه بالسِّياط نَقيبُ العلويّين هنالك وجَرَّسه. والتَّجْريس: أن يُنادى عليه: هذا خَرا! ويُشهرَ بين الناس.

فسار إلى سِنْجار. وأتفق أن خَفّ على رؤسائها بكثرة التَّثقيل، وصاروا يَعْمُرون مجالسهم بالمُطايبة معه، والحكايات عنه إذا غاب. وصار له بذلك إدلالٌ يُجالس به العلماء ويَبحث فى مجالسهم. وكان الحظّ الأوفر من البليّة به للموفَّق التَّلَعْفَرىّ، فجعله نُصْب أفكاره ونوادر أشعاره. فاطّرد له معه، مع أتصال الأيام إلاّ فى النُّدرة، ما يُزرى بأشعارا بن سُكَّرة[3] فى خَمرته. فمن ذلك قولُه:

---

(١) نسبة إلى قطربل، بالضم ثم السكون ثم فتح الراء وباء موحدة مشددة مضمومة ولام. وقد روى بفتح أوله وطائه: قرية بين بغداد وعكبرا، ينسب إليها الخمر (انظر معجم البلدان).

(٢) نقص بالأصل لا يعرف مبلغه، غير أنه يبدو قليلاً.

(٣) هو أبو الحسن محمد بن عبد الله، من ولد على بن المهدى بن أبى جعفر المنصور العباسى. وكان يقال: إن زماناً جاد بمثل ابن سكرة وابن حجاج لسخى جدا. وما شبها إلا بجرير والفرزدق فى عصرهما. ويقال إن ديوان ابن سكرة يربى على خمسين ألف بيت. وكانت وفاته سنة ٣٨٥ هـ. (انظر اليتيمة. ووفيات الأعيان).

[سريع]

أَبْنُ الجِفــانىّ غَدَا عِنْدنا بضِدّ ما كان بقُطرَبُّلِ
صاعقـــةً أرسلها ربُّها بأرض سِنْجار على مَن بُلِي
/ دَلَّى ذُؤابات وقال انظرُوا سِبْطَ النَّبىّ المُصطفى المُرْسَل [31 b]
حاشى السَّراة الغُرَّ من هاشم أَن يَقْرُبُوا مِن مُدَّع مُمْحِل
يَأنف مِن نِسْبته كُلُّ مَن يَرْجِع فى النَّاس إلى أَوَّل
إنْ كان حقًّا ما أدَّعى قُلْ له يُظْهِر ذاك الأَمرَ فى المَوْصل
السَّوطُ والتَّجريسُ قُدَّامه وإنْ تمادى أَمْرُه يُقْتَل
أَراحَنا منه الذى صاغَه من جَبَل الجُودىّ[1] كالجَنْدل

خَص جبل « الجُودىّ » لأنه لا يُفارقه الثلج. وكان هذا الرجل باردًا ثقيلًا يابس المفاصل.

وقوله :

[منسرح]

هذا الجَليسُ الذى بُليتُ به أَقْسَم أَلَّا يُفــارقَ الصَّلَفَا
فى كُل عِلْمٍ يَخُوض مُدَّعِياً وهو جَهُولٌ بكُل ما عُرِفا
أَوْضعُ خَلْق الإلٰه كُلِّهمُ ويَدَّعى أَنه من الشُّرَفا
الموتُ منه ومِن ثَقالته أماتَه الله عاجلًا وكَفَى

(١) الجودى : جبل مطل على جزيرة ابن عمر فى الجانب الشرقى من دجلة . (انظر معجم البلدان) . وانظر تعليق المؤلف بعد .

وقوله :

[بحث]

هذا الدَّعِيُّ الذي غَيَّ ... رُ جَهْلِه لم يُبْتَهُ

يَرْوِي الغريبَ ويُرْوَى ... غرائبُ اللُّؤْمِ عنهُ

/ لطاهرٍ مُنتهاه ... والكلْبُ أطْهرُ مِنْهُ [١٢٥]

وقوله :

[سريع]

لنا جَلِيسٌ باردٌ مُعْجَبٌ ... أبعده الله وأمثالَهُ

إذا أُحْتُبِي فى مجلسٍ تائهاً ... أخرج مثلَ الأرض أثقالَه

ويُدَّعَى فى نَسَبِ المُصطفى ... وفِعْلُه يَكْذب ما قالَه

يا ربِّ لا تَقْضِ أتصالى به ... يوماً وقطِّع منه أوصالَه

ولم يزلْ مع الملك الأشرف إلى أن حضر معه وقعة دُنَيْسر[١] ، التى كانت له فى سنة اثنتين وستمائة ، على نور الدين[٢] ، صاحب الموصل ، فوقع وارتضّ جسده ، فمات فى إثرها .

---

(١) دنيسر : من نواحى الجزيرة قرب ماردين .

(٢) هو أبو الحارث أرسلان شاه بن مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى بن آق سنقر ، صاحب الموصل ، المعروف بأتابك ، الملقب بالملك العادل نور الدين .

وكانت وفاته سنة سبع وستمائة . (انظر وفيات الأعيان) .

الترجمة الثانية

[ابن عطاء الله]

الشاعر الأديب المصنِّف راجى بن عَطَاء الله المِصْرىّ. ذكر لى ابنُ عبد العظيم صاحب تاريخ مصر[1] أنه كان عطَّارًا بالفُسطاط ، يجلس عنده الأدباء والشعراء، ويَبيتون معه فى السَّماع. وكان من أولع خلق الله بحُضوره ، / والقول فى مَنازع غراميّاته . [32 b]

وخَدم الملك العزيز[2] ، ابن صلاح الدِّين صاحب مصر ، بالأدب والشعر ، وله فيه أمداح . وصَنّف له كتاب « الشعراء العَصريَّة، بالديار المصرية » . وهو مشهور بأيدى الناس .

وكانت وفاته سنة اثنتين وستّمائة .

وأكثر ما وقعتُ عليه من شعره فى طريقة السّماع . فممّا سمعتُه يُغنّى به من ذلك فحفظتُه قولُه :

(١) هو جمال الدين أبو حسين يحيى بن عبد العظيم بن يحيى بن محمد ابن على ، المصرى المولد والوفاة ، المعروف بالجزار ، أحد فحول الشعراء فى زمانه . وقد ولد سنة ٦٠١ هـ — وقيل سنة ٦٠٣ هـ — وكانت وفاته سنة ٦٧٩ هـ .
وله « العقود الدرية فى الأمراء المصرية » ومنه مخطوطة بمكتبة ليدن ، وثانية بمكتبة باريس .
(انظر النجوم الزاهرة ، والمنهل الصافى ، وكشف الظنون ، وبروكلمان) .

(٢) هو أبو الفتح عماد الدين عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب . كان نائباً عن أبيه فى الديار المصرية. وبموت أبيه بدمشق استقل بمصر سنة ٥٨٩هـ. وولد بالقاهرة سنة ٥٦٧ هـ . وبها توفى سنة ٥٩٥ هـ. (انظر وفيات الأعيان. والنجوم الزاهرة . والمقريزى) .

[مجتث]

يا حادِيَ العِيس رِفقًا بوَخْدِهـــا فى البيدِ
وأثنِ المطىَّ قليـــلاً على المُحبِّ العَمِيـــد
بَلَى بسَلْع[1] حَبِيبٌ لقاؤُه يومُ عِيـــد
بَلِّغـــه أنِّى طريحٌ على تِلاعِ[2] زَرُود
مِن يَوْم ذاك التَّجنِّى وعهدِ ذاك الصُّدود

وقولُه :

[مجزوء الرمل]

يا ثِقـــاتِى نَقَل الأء داءِ لى عنـــكم وعَنِّى
بحَيَاة الحُبِّ إلاّ كُنتُم لى عنـد ظنِّى
/أحذَرُوا أنْ تتركونى فى الهَوَى أقْرَعُ سنِّى [33 a]
عَذِّبُوا بكُلِّ شىءٍ غَيْرِ إظهـــار التَّجنِّى
فمتى شُنِّع عنـــكم أشْتَفِى الحُسّادُ منِّى
إن أكُن أبْغِى سواكم لا أقَرَّ اللهُ جَفْنِى

---

(١) سلع ، بالفتح : جبل بسوق المدينة . وقال الأزهرى : موضع بقرب المدينة . (انظر معجم البلدان) .

(٢) زرود : رمال بين الثعلبية والخزيمية بطريق الحاج من الكوفة . وفيها يقول الشاعر :

أقول وقد جزنا زرود عشية وراحت مطايانا تؤم بنا نجدا
على أهل بغداد السلام فإننى أريد بسيرى عن بلادهم بعدا

(انظر معجم البلدان) .

لم أُمَنِّ النَّفسَ إلَّا كنتمُ أقصى التَّمنّى
أنا سكرانُ هَواكم وبذِكْراكم أُغنّى
شَرِب الكُلّ بكأسٍ وأنا وَحْدى بدَنّ
فلهم فَنٌّ ولى فى نَشَواتى ألفُ فَنّ

وقولُه :

[رمل]

يا عُيونًا باللِّوى ساهرةً حرّم الله عليكِ الفِكَرا
أنا فى نارِ اشتياقٍ مُحْرَقٌ ووُشَاتى تَسْتطيب السَّمَرا
والذى قد ذُبْتُ مِن وَجْد به وغرام ليس يَدْرى الخَبَرا
ليتهم لو ساعدونى ساعةً بحبيبى فاختلستُ النَّظَرا
ليس بَخْتى فى الهوى البختَ الذى أجْتنى البَرْد به والزَّهَرا

وأُنشدت له ، وقد بلغه أن صاحباً له أفشى حديثاً كان بينه وبينه لم يطلع عليه غيره ، وجعل يشنّعه على / جهة الإشفاق والنُّصح : [36b]

[طويل]

على كُل ما قد كان فى الوُدّ بيننا عَفاءٌ مدَى الأيام غادٍ ورائحُ
تُشنِّع ما لولاكَ لم يَبْدُ للعِدَى وتَزْعم مِن جَهْلٍ بأنك ناصِحُ
أَفِقْ أيها المَغرور لستَ بلائقٍ بمثلى وقد شانتْك تلك الفَضائح

---

(١) أى « عفاء على كل . . . الخ » .

الترجمة الثالثة

[هذيل الإشبيلى]

الأستاذ النَّحوى الأديب الظريف أبو الحسن هُذيل بن عبد الرحمن الإشبيلى .

ذكر ابن عُمر فى تاريخه أنه مات فى سنة اثنتين وستمائة .

وكان أبو العبّاس النيّار الإشبيلى[1] من أحفظ الناس بأخباره وأشعاره ونوادره .

أخبرنى أنه وصل إليه طالبٌ متخلّف ليقرأ عليه ، فكان فى أول قراءته عليه قولُ كثيِّر :

[بسيط]

حَيَّتْكَ عَزَّةُ بعدالهَجْر وانصرفتْ فحيِّ وَيحَكَ مَن حَيَّاكِ يا جُمَلُ

فصحَّفه وقال : جئتك عُرة » . فقال : وكذاك بالله ترجع يا ولدى .

وقال له يوماً : يا أستاذ ، ما الكموْج ؟ فقال : وأين رأيتَ هذه اللفظة ؟ قال : فى قول امرئ القيس : [34 a]

[طويل]

* وليلٍ كموج البحر أرخى سُدولَه *

فقال : نعم ، الكموج : دويبة من دواب البر تحمل الكتب ولا تعلم ما فيها .

---

(١) كان تلميذه ، وعنه أخذ ابن سعيد . (انظر المغرب ٢٦٥) .

وقرأ عليه طالب من البربر قال : (قلْ إنْ كَانَ للرحمن وَلَدٌ فأنا . . .[1]) ووقف . فقال : لأى شيء بالله ؟ ألطيب شَعْرك ؟ عيسى ابنُ مَريم لم يعلّم لأصحابه ذلك ، فكيف أنت[2] !

وخَرج يوماً من المسجد الذى كان يُقرئ فيه فوجد سائلاً وهو يُرعد بالبرد ويَصيح : الجوع والبرد يا مُسلمين ! فأخذ بيده وحمله إلى موضع فيه الشمس ، وقال : صِحْ بالجُوع ، فقد رفع الله عنك البرد .

قال : ومن شعره : قولُه فى جاهل كان يلزم مجلسَه ، وكان ممَّن ضَيّق الله خُلقه ورِزْقه، وأساء خَلْقه :

[منسرح]

عهْدِىَ بالْحِرفَة التى كُرهتْ ... مع الأديب الأريب تُصْطحبُ
وأنت ما بالُها عليك غدتْ ... وَقْفًا ولم تَدْر قطُّ ما الأَدب

وقولُه فيه أيضاً :

[طويل]

ومن أعجب الأشياء حِرْفتُك التى ... شُهرت بها والضّيق فى الخُلق والرِّزق
[34b] ولستَ أديباً لا ولا كاتباً ولا ... جليساً على الصهباء مُسْتطيب الخُلْق
غَرائب لم تُجمع لخَلْق من الورَى ... وأَغْربُ منها أن تُعدَّ من الخَلْق

وقال فى شَخص آخر أحْول كَثير العُجب ، وقد مَرِضت عينُه :

[طويل]

جليسٌ لنا لا يَبرح الدهرَ قاعدًا ... رمانا به الحِرْمانُ من حيثُما رَمَى

(١) الآية (٨١) من سورة الزخرف . وتمامها : (أول العابدين) .
(٢) ورد بعض هذا فى المغرب لابن سعيد مختلفاً عما هنا .

له مُقلة حَوْلاَ وعينٌ مَريضةٌ وعمّا قريب سوف يُدركه العَمَى
إذا أبصرتْ عيناى طَلْعتَه التى أموتُ بها غَمًّا أرى الموتَ مَغْنما

وقال : وقد صافحه فتًى جميلٌ من أبناء الأعيان :

[خفيف]

صَبَّح الله ذلك الوجهَ بالسَّعْ دِ وَحيّاه بالعُلَى والكَرامَهْ
لم نُلاحظ يوماً لحاظَك إلا وسألْنا مِن الإلٰهِ السَّلامَه

كَمل الجزء الأول

من كتاب الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة .

والحمد لله والصلاة على سيدنا محمد وآله . يتلوه إن شاء الله تعالى :

تراجم سنة ثلاث وستمائة .